ويكون جواب بعض الملأ على بعضهم الآخر من جنس جواب الملأ على سؤال فرعون الطّاغية الّذى وجد ملأه خفيفي الأحلام سفهاء العقول . جاء فى سورة الشّعراء القول : ﴿ قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين . يأتوك بكلّ سحّارٍ عليم ﴾ وجاء فى سورة الأعراف القول : ﴿ قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين . يأتوك بكلّ ساحرٍ عليم ﴾ .

ويلاحظ بشأن الآية الكريمة الأولى انحصار الاختلاف فى الموضعين بين جملة : ﴿ وابعث ﴾ فى خطاب الملأ لفرعون ، وجملة : ﴿ وأرسل ﴾ فى خطاب بعض الملأ بعضهم الآخر . والمعروف أنّ البعث يقترن به الإثارة والتّوجيه[1] فى حين يقترن بالرّسْل الانبعاث على التُّؤدة . يقال : ناقةٌ رِسْلة سهلة السّير ، وإبلٌ مراسيل منبعثةٌ انبعاثاً سهلاً ، ومنه الرّسول المنبعث . وتُصوِّر منه تارةً الرّفق فقيل على رِسْلك إذا أمرته بالرّفق[2] .

كما يلاحظ بشأن الآية الكريمة الأخرى انحصار الاختلاف فى الموضعين بين لفظة: ﴿ سحّار ﴾ فى خطاب الملأ لفرعون ، ومعروف أنّ صيغة فعّال صيغة مبالغة ، ولفظة ﴿ ساحر ﴾ فى خطاب بعض الملأ بعضهم الآخر ، ومعروفٌ أنّ صيغة فاعل اسم فاعل .

فعلام يدلّ التّحوّل المستمرّ فى كلام بعض الملأ بعضهم الآخر من التّعبير السّاخن إلى البارد ؟ يدلّ على سجيّة هذا النّوع من الملأ دائماً وطبيعة البّغاوات فى كلّ زمانٍ ومكان . فتورٌ سريعٌ فى المشاعر ، وبرودٌ فوريٌّ فى الكلام. يلاحظ كلّ ذلك مع الحرص الكامل للبّغاوات على الاحتفاظ بالإطار والطّلاء الخارجيّين . ألم يردّد البّغاوات وراء ذلك كلّ ما جرى على لسان الطّاغية ممّا يحقّق الإطار والطّلاء ؟ بلى. وهل تفعل المستأجرة غير ذلك كي تظهر بمظهر الثّكلى ؟ لا . إنّ هذا ما التزم به البّغاوات من ملأ فرعون رمز الطّغاة والبغاة .

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : « بعث » ٥٢ .

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : « رسل » ١٩٥ .

ومعنى أرجه وأخاه أرجئه أي أخّره « والإرجاء في كلام العرب التّأخير . يقال منه : أرجيت هذا الأمر وأرجأته إذا أخّرته . ومنه قول الله تعالى : ﴿ تُرْجِي من تشاء منهنّ ﴾ ، تؤخّر . فالهمز من كلام بعض قبائل قيس ، يقولون : أرجأت هذا الأمر. وترك الهمز من لغة تميم وأسد ، يقولون : أرجيته . واختلفت القرّاء في قراءة ذلك ، فقرأته عامّة قرّاء المدينة وبعض العراقيّين : أرجه ، بغير الهمز وبجرّ الهاء . وقرأه بعض قرّاء الكوفيّين أرجه ، بترك الهمز وتسكين الهاء على لغة من يقف على الهاء في المكنيّ في الوصل إذا تحرّك ما قبلها »[1] إنّ الملأ يقترحون على فرعون أن يؤخّر موسى وأخاه هارون عليهما السّلام ريثما يرسل فرعون في مدائن مملكته حاشرين وهم الشُّرَط عن ابن عبّاس[2] يحشرون له السّحرة من سائر البلاد ويجمعونهم له عليه لعنة الله[3] ويأتون بكلّ ساحرٍ عليم متفوّقٍ في السّحر في ذلك الزّمان وذلك المكان . لقد كان المصريّون متفوّقين في فنّ السّحر ، ومن هنا كانت معجزة موسى عليه السّلام بإرادة الله تعالى من جنس ما تفوّق فيه القوم .

ونستطيع أن نتبيّن بوضوحٍ التّناغم بين جملة ﴿ أرجه ﴾ الّتي تعني التّأخير ، وجملة : ﴿ أرسل ﴾ الّتي فهمنا أنّها تعني الإرسال بتؤدة ، وجملة : ﴿ يأتوك ﴾ الّتي فهمنا أنّها تستعمل في القرآن الكريم دليلاً على البعد . وهي هنا تفيد معنى البعد المكاني لأنّ الحاشرين يجمعون السّحرة الماهرين في أيّ مكانٍ من أقطار الدّيار المصريّة كانوا . وتبعاً للبعد المكانيّ يأتي البعد الزّمانيّ بالضّرورة . وهكذا يقترن بجملة ﴿ أرجه ﴾ البعد الزّمانيّ ، وبجملة : ﴿ أرسل ﴾ البعد المكانيّ والزّمانيّ معًا، وبجملة ﴿ يأتوك ﴾ البعد المكانيّ أساسًا . ما أعدل هذه القسمة بين الزّمان والمكان. واللّطيف في الأمر أنّ الآية الكريمة التّالية تبدأ بجملة : ﴿ وجاء ﴾ الّتي تستعمل في القرآن الكريم دليلاً على القرب الزّمانيّ أو المكانيّ أو المعنويّ النّفسيّ . والآية

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩ / ١٢ والمراد بالمكنيّ اسم الضّمير .

(٢) تفسير الطّبريّ ٩ / ١٢ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٢ / ٢٣٦ .

الكريمة التّالية مرتبطةٌ بالّتى تليها ، قال تعالى : ﴿ وجاء السّحرة فرعون قالوا إنّ لنا لأجْرًا إن كنّا نحن الغالبين . قال نعم وإنّكم لمن المقرّبين ﴾ والمعنى أنّ السّحرة قد وصلوا إلى فرعون فعلاً ، وها هم أولاء يجتمعون ويتكلّمون معه وجهاً إلى وجه. فما الّذى يلاحظ على ما جرى على ألسنة السّحرة فى القول : ﴿ قالوا إنّ لنا لأجرًا إن كنّا نحن الغالبين ﴾ ؟ وعلى ما جرى على لسان فرعون فى القول : ﴿ قال نعم وإنّكم لمن المقرّبين ﴾ الّذى يلاحظ على ما جرى على ألسنة السّحرة أنّ أهمّ ما يحرصون عليه هو الأجرة أو الثّمن ، وأنّ اجتهادهم فى السّحر والحرص على الفوز مترتّبٌ على كمّيّة المال المدفوع أصلاً وما يلحق بالمال من جاهٍ ومنصبٍ تبعًا . والّذى يلاحظ على ما جرى على لسان فرعون أنّ أهمّ ما يحرص عليه هو الظّفر والانتصار على موسى وهارون عليهما السّلام لغايةٍ خسيسةٍ فى أعماقه . وفى سبيل تحقيق فرعون هدفه الرّخيص هو يبذل للسّحرة ما طلبوا من مال وما لم يطلبوا من جاه .

ولا يكاد العجب ينتهى من دولة الظّلم فى كلّ زمان ومكان . إنّ الرّغبات الرّخيصة والغايات الخسيسة هي الّتى تحكم القوم . إنّ الحكّام كتلٌ من الشّهوات ، وإنّ الملأ والعاملين فئاتٌ من المرتزِقة والمأجورين .

وانسجامًا مع ما يتبيّن فى السّياق من اختزالٍ فى الكلام أو اختصارٍ نحن نتبيّن أنّ القول : ﴿ بسحره ﴾ فى الآية الكريمة الخامسة والثّلاثين من سورة الشّعراء لا يأتى فى الآية الكريمة العاشرة بعد المائة من سورة الأعراف ، قال تعالى : ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ﴾ كما نتبيّن أنّ لفظة : ﴿ سحّار ﴾ فى الآية الكريمة السّابعة والثّلاثين من سورة الشّعراء يأتى بدلاً منها لفظة : ﴿ ساحر ﴾ فى الآية الكريمة الثّانية عشرة بعد المائة من سورة الأعراف . قال تعالى : ﴿ يأتوك بكلّ ساحرٍ عليم ﴾ ونتبيّن كذلك أنّ الاستفهام الصّريح على لسان السّحرة فى سؤال فرعون فى الآية الكريمة الحادية والأربعين من سورة الشّعراء ، قال تعالى : ﴿ فلمّا جاء السّحرة قالوا لفرعون أئنّ لنا لأجرًا إن كنّا نحن الغالبين ﴾ يصير استفهامًا

مضمرًا فى الآية الكريمة الثّالثة عشرة بعد المائة من سورة الأعراف ، قال تعالى : ﴿ وجاء السّحرة فرعون قالوا إنّ لنا لأجرًا إنا كنّا نحن الغالبين ﴾ وإنّ حرف الجواب : ﴿ إذن ﴾[1] فى الآية الكريمة الثّانية والأربعين من سورة الشّعراء لا يأتى فى الآية الكريمة الرّابعة عشرة بعد المائة من سورة الأعراف ، قال تعالى : ﴿ قال نعم وإنّكم لمن المقرّبين ﴾ .

وإنّ اسم ضمير جماعة المتكلّمين : ﴿ نحن ﴾ فى القول على لسان السّحرة : ﴿ إن كنّا نحن الغالبين ﴾ الّذى يدلّ على إحساس السّحرة فى أعماقهم بأهمّيّتهم وثقل وزنهم ورغبتهم فى الظّفر من أجل مصالحهم الذّاتيّة فى المقام الأوّل ليذكّرنا باسم الضّمير ذاته فى القول على لسان السّحرة أيضاً فى الآية الكريمة التّالية الّتى جاء فيها على لسانهم القول : ﴿ وإمّا أن نكون نحن الملقين ﴾ فإلى .

الآيـــة رقـــم (١١٥)

قال تعالى : ﴿ قالوا يا موسى إمّا أن تُلْقِي وإمّا أن نكون نحن الملقين ﴾ .

من البيّن أنّ ثمّة بعض المواقف الّتى تخطّتها السّورة الكريمة ، ومن السّور الكريمة الّتى فيها بعض الإضافات الّتى يقتضيها المقام سورة طه . قال تعالى[2] : ﴿ ولقد أريناه آياتنا كلّها فكذّب وأبى . قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى . فلنأتينّك بسحرٍ مِثْلِهِ فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكانًا سُوًى . قال موعدكم يوم الزّينة وأن يُحْشَرَ النّاس ضُحى . فتولّى فرعون فجمع كيده ثمّ أتى. قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبًا فَيُسْحِتَكُمْ بعذابٍ وقد خاب مَنِ افترى . فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرّوا النّجوى . قالوا إنْ هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المُثْلَى . فأجمعوا كيدكم ثمّ

---

(١) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٩ / ٣٣٣ .

(٢) سورة طه ٥٦ ـ ٦٥ .

ائتوا صفًّا وقد أفلح اليوم من استَعْلَى . قالوا يا موسى إمّا أن تُلْقِيَ وإمّا أن نكون أوّل من ألقى ﴾ .

ومن البيّن وجه الشّبه بين الآية الكريمة الّتى نحن بصددها من سورة الأعراف والآية الأخيرة من آيات سورة طه . إنّ السّحرة يخيّرون موسى عليه السّلام بين أن يبدأ بإلقاء عصاه أو أن يبدأوا هم بإلقاء حبالهم وعصيّهم . وإذا كان ابن الأثير فى المثل السّائر[1] قد فهم . رغبة السّحرة فى الإلقاء قبل موسى عليه السّلام بسبب مجىء الضّمير المنفصل ﴿ نحن ﴾ الّذى يفيد التّوكيد فى الجزء من القول الّذى يخصّهم وعدم مجىء ضمير التّوكيد فى الجزء من الكلام الّذى يخصّ موسى عليه السّلام ، فإنّ هذه الرّغبة فى الإلقاء أوّلاً قد صرّح بها السّحرة حينما جاء على لسانهم لفظة ﴿ أوّل ﴾ فى الجزء الّذى يخصّهم فى الآية الكريمة من سورة طه . قال تعالى : ﴿ قالوا يا موسى إمّا أن تلْقِي وإمّا أن نكون أوّل من أَلْقَى ﴾ .

ويُلهم الله تعالى موسى عليه السّلام أن يحقّق رغبة السّحرة فى الإلقاء أوّلاً كي يظهر سحرهم العظيم الّذى جاءوا به من ناحية ، وكي تظهر آية موسى عليه السّلام الغالبة بإذن الله تعالى أشدّ إشراقًا وأبلغ أثرًا فإلى .

الآيـــة رقـــم (١١٦)

قال تعالى : ﴿ قال أَلْقُوا . فلمّا أَلْقَوْا سحروا أعين النّاس واسترهبوهم وجاءوا بسحرٍ عظيم ﴾ .

الآية الكريمة ذات علاقةٍ بمثل هذه الآية الكريمة من سورة طه[2] : ﴿ قال تعالى : ﴿ قال بل أَلْقُوا ، فإذا حبالهم وعِصِيُّهُمْ يُخيَّلُ إليه من سحرهم أنّها تسعى ﴾ .

وحينما نقارن بين القول فى آية سورة طه : ﴿ قال بل ألقوا ﴾ وبين القول فى

---

(١) ٢ / ٢٠٤ . (٢) الآية ٦٦ .

آية سورة الأعراف : ﴿ قال ألقوا ﴾ نتبيّن أنّنا لا نزال أمام الاختزال أو الاختصار الّذى نصادفه عادةً فى سورة الأعراف .

واسترهبوهم من الرّهبة بمعنى الخوف والفزع[١] مع تحرّزٍ واضطراب[٢] ومن العلماء من ذهب إلى أنّ استرهب بمعنى أرهب . يقول أبو حيّان[٣] : « واسترهبوهم أي أرهبوهم . واستفعل هنا بمعنى أفعل » ويقول الأصفهاني[٤] : « أي حملوهم على أنْ يرهبوا » ويقول ابن عطيّة[٥] : « واسترهبوهم بمعنى أرهبوهم، أي أفزعوهم . فكأنّ فعلهم اقتضى واستدعى الرّهبة من النّاس » وجاء فى الجلالين: « واسترهبوهم : خوّفوهم » ومن العلماء من أضاف إلى الرّهبة الطّلب الشّديد لها والحرص الأكيد عليها ، وهذا المعنى أومأ إليه إيماءً ابن عطيّة فى حين صرّح به الزّمخشريّ فى الكشّاف[٦] إذ يقول : « واسترهبوهم ، وأرهبوهم إرهابًا شديداً كأنّهم استدعوا رهبته » ويقول البقاعيّ[٧] : « واسترهبوهم ، أي وأوجدوا رهبتهم إيجاد راغبٍ فيها طالبٍ لها غاية الطّلب » ولا شكّ أنّ السّحرة كانوا طالبين رهبة موسى وفرعون عليهما السّلام غاية الطّلب ، وبذلك تكون الزّيادة فى المعنى هنا وليدة الزّيادة فى المبنى .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ موسى عليه السّلام أمر السّحرة أن يلقوا أوّلاً . وقد بيّنت هذه الآية الكريمة من سورة طه[٨] أنّ السّحرة ألقوا حبالهم وعصيّهم . قال تعالى : ﴿ قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيّهم يخيّل إليه مِنْ سحرهم أنّها تسعى ﴾ وإذا كانت آية سورة طه قد نصّت على أنّ ما عمله السّحرة تخييلٌ وضربٌ من ضروب الأوهام والخيالات الّتى لا حقيقة وراءها فإنّ آية سورة الأعراف تؤكّد هذا

---

(١) البحر المحيط ٤ / ٤٦٢ .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « رهب » ٢٠٤ .
(٣) البحر المحيط ٤ / ٣٦٢ .
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « رهب » ٢٠٤ .
(٥) تفسير ابن عطيّة ٦ / ٣٥ .
(٦) ١ ٥٦٦ .
(٧) نظم الدّرر ٩ / ٢٧ .
(٨) الآية ٦٦ والمفردات أنّ « إذا » تفيد المفاجأة .

المعنى وتقرّر أنّ السّحرة قد سحروا أعين النّاس فرأو الشّيء على غير حقيقته وأصله، ورأوا الحبال ثعابين تتلوّى ورأوا العصيّ حيّاتٍ تسعى .

إنّ السّحرة سحروا أعين النّاس ، وتعمّدوا بجدٍّ واجتهاد أن يدخلوا الرّهبة والفزع فى قلوبهم . وكانت وسيلتهم لإدخال الرّهبة فى الصّدور والرّعب فى القلوب مجيئهم فعلاً بسحرٍ عظيم بحيث إنّ الوادي امتلأ بالثّعابين والحيّات الّتى تسعى وتتلوّى ويركب بعضها بعضاً . وينبغى أن تكون الثّعابين والحيّات من مختلف الأحجام والأنواع والأشكال . وقد نصّت هذه الآية الكريمة من سورة طه[1] على أنّ موسى عليه السّلام قد أحسّ فى نفسه خيفةً لما رأى من ثعابين وحيّات لا يكاد يأتى عليها الحصر . قال تعالى : ﴿ فأوجس فى نفسه خيفةً موسى ﴾ وإنّما كان خوف موسى عليه السّلام من جهة أن يختلط على النّاس سحر السّحرة بمعجزته عليه السّلام لأنّهما من جنسٍ واحد ولكنّ الفرق بين معجزته عليه السّلام وبين ما جاء به السّحرة من سحر عظيم هو الفرق بين الحقّ والباطل .

ولمّا كان موسى عليه السّلام حينما ألقى عصاه بالوادي المقدّس طوى ، ثمّ بحضرة فرعون وتحوّلت حيّةً تسعى فى كلٍّ من المرّتين كان أمام آيةٍ قد اصطفاه الله تعالى بها وقد أجراها الله تعالى على يده فى المرّة الأولى ، وتحدّى بها فرعون الّذى لم يكن ساحراً فى المرّة الثّانية ، فإنّ موسى عليه السّلام يواجه تجربةً من نوعٍ آخر فى المرّة الثّالثة . إنّه عليه السّلام آنذاك أمام أمهر السّحرة فى عصره وربّما فى سائر العصور . وإذا كان خوف موسى عليه السّلام قد جاء لكون الآية والسّحر من جنسٍ واحدٍ وربّما اختلط الأمران على العامّة ، فربّما كان موسى عليه السّلام قد تسرّب إليه شيءٌ من الرّهبة الّتى انتابت النّاس بسبب السّحر العظيم الّذى رأوا إلى الحدّ الّذى امتلأ بسببه الوادي بالثّعابين والحيّات الّتى يركب بعضها بعضًا .

إنّ ربّ العزّة ينهى موسى عليه السّلام عن الخوف ويوحى إليه بإلقاء عصاه .

---

(١) الآية ٦٧ .

وفى هذا المعنى تحدّثت فى شىءٍ من التّفصيل هذه الآيات الكريمات من سورة طه[1] قال تعالى : ﴿ فأوجس فى نفسه خيفةً موسى . قلنا لا تخف إنّك أنت الأعلى . وألقِ ما فى يمينك تَلْقَفْ ما صنعوا إنّما صنعوا كيد ساحرٍ ولا يُفْلِح السّاحر حيث أتى . فألقي السّحرة سجّدًا قالوا آمنّا بربّ هارون وموسى ﴾ والآيات الكريمات التّاليات من سورة الأعراف تشير إلى هذا الإيحاء والعون من ربّ السّماوات والأرض لعبده المصطفى المختار موسى عليه السّلام . فإلى .

الآيات رقم (١١٧ - ١٢٢)

قال تعالى : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألْقِ عصاك فإذا هي تلقف ما يَأْفِكون . فَوَقَع الحقّ وبَطَلَ ما كانوا يعملون . فَغُلِبوا هنالك وانقلبوا صاغرين . وأُلْقِيَ السّحرة ساجدين . قالوا آمنّا بربّ العالمين . ربّ موسى وهارون ﴾ .

عرفنا أنّ موسى عليه السّلام قد نهاه ربّه جلّ وعلا عن الخوف من سحر السّحرة وبشّره بأنّه هو الأعلى بإذنه جلّ وعلا ، وعرفنا أنّ خوف موسى عليه السّلام أساسًا أن يختلط على النّاس سحر السّحرة بآيته عليه السّلام لأنّهما جنسٍ واحد ، وليس ثمّة ما يمنع أن يكون شيءٌ من خوف موسى عليه السّلام يعود إلى السّحر العظيم ذاته الّذى يراه لأنّه عليه السّلام يصادف لأوّل مرّة هذا التّحدّى من السّحرة ، خاصّةً وأنّه عليه السّلام حينما رأى عصاه أوّل مرّةٍ : ﴿ تهتزّ كأنّها جانٌّ ولّى مدبرًا و لم يعقّب ﴾[1] بمعنى أنّه عليه السّلام حينما رأى عصاه تهتزّ كأنّها حيّةٌ خفيفةٌ ولّى مدبرًا و لم يرجع فنهاه ربّه جلّ وعلا عن الخوف وأمره بالقول[2] : ﴿ يا موسى أَقْبِلْ

---

(١) الآيات ٦٧ - ٧٠ .

(٢) سورة النّمل ١٠ .

(٣) سورة القصص ٣١ .

ولا تخف إنّك من الآمنين ﴾ وكأنّ موسى عليه السّلام ، لهول المفاجأة ، نسي آية العصا الّتى اصطفاه الله تعالى بها ، فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه أن يلقي عصاه الّتى خصّه الله تعالى بها آيةً من الآيات التّسع الّتى أرسله الله تعالى بها فألقاها موسى عليه السّلام فإذا هي تتلقّف وتتناول بفمها بحذقٍ ومهارة[١] وتَلْقُمُ[٢] وتبتلع[٣] بخفّةٍ ودقّة ما يأفك السّحرة ويكذبون[٤] ويقلبون بتمويههم[٥] ويصرفون عن وجهه الّذى يحقّ أن يكون عليه[٦] إلى هدفهم الباطل وغرضهم الخسيس .

ونستطيع أن نفهم من جملة : ﴿ يأفكون ﴾ فى صيغة الزّمن المضارع أنّ السّحرة كانوا مستمرّين فى إفكهم وانصرافهم عن الحقّ إلى الباطل وصرفهم الحبال والعصيّ عن حقيقتها إلى باطلهم وأنّهم كانوا جادّين فى ذلك غاية الجدّ وأنّهم أخرجوا منتهى مهاراتهم واستنفدوا كلّ طاقاتهم فى سبيل كسب المعركة مع موسى وهارون إرضاءً لفرعون وللشّيطان الرّجيم ولنفوسهم الأمّارة بالسّوء الّتى منّتهم بالمال الوفير والجاه العريض.

ونستطيع أن نفهم من مجيء كاف الخطاب العائد إلى موسى عليه السّلام فى القول : ﴿ أن ألق عصاك ﴾ مزيد القوّة المعنويّة للإيحاء إليه عليه الصّلاة والسّلام فالعصا المطلوب منه أن يلقيها هي العصا الّتى خصّه الله تعالى بها والّتى هي بيمينه عليه الصّلاة والسّلام فى العادة .

ونستطيع أن نفهم من إذا الفجائيّة الّتى جاءت من قبل حينما ألقى موسى عليه السّلام عصاه أوّل مرّةٍ وذلك فى الآية الكريمة السّابعة بعد المائة : ﴿ فإذا هي ثعبانٌ مبين ﴾ وجاءت هنا فى القول : ﴿ فإذا هي تلقف ما يأفكون ﴾ أنّ المفاجأة كانت

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ « لقف » ٤٥٣ .
(٢) يقال : لَقَمَ الطّعام إذا أكله سريعًا .
(٣) تفسير الطّبريّ ٩ / ١٤ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٩ / ١٥ .
(٥) الجلالين .
(٦) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « أفك » ١٩ .

شاملةً على التّرتيب السّحرة وفرعون وملأه والعامّة . أمّا السّحرة فلأنّ كلّ أطماعهم كانت معلّقةً على انتصارهم أمام فرعون وملئه والجمهور على موسى وهارون عليهما السّلام ، ولا ننسى أنّ السّحرة يرون عصا موسى عليه السّلام تتحوّل حيّةً تسعى لأوّل مرّة . وأمّا فرعون والملأ فلأنّ انتصار موسى وهارون عليهما السّلام وانهزام السّحرة يعنى كلّ ذلك شرًّا مستطيرًا فى حقّهم . ولا ننسى أنّ فرعون وملأه يرون عصا موسى عليه السّلام تتحوّل حيّةً تسعى ثاني مرّة ، فللمفاجأة من حيث الظّاهر الموطّئ لها ، أمّا من حيث الباطن فللمفاجأة الأسوأ من كلّ أثر لأنّها تعني المُلْك المنزوع والجاه الذّاهب إلى غير رجعة . وبقدر سوء الباطن عند فرعون وملئه حسن الباطن عند السّحرة فقد تأكّد لهم أنّ موسى وهارون عليهما السّلام رسولان من ربّ العالمين . وأمّا الجمهور فلأنّه خاب ظنّه فى انتصار السّحرة فى ذلك اليوم من أيّام الأعياد الّتى يتزيّنون فيها ويجتمعون ويحتفلون . وكانت حسرة الجمهور لذلّ الهزيمة مساويةً لطمعهم السّابق فى عزّ النّصر . وإنّما تأخّر ترتيب الجمهور بشأن المفاجأة لأنّ الجمهور يشتمل فى العادة على الغوغاء أو الدّهماء الّذين يلبّون نداء كلّ ناعق وبخاصّةٍ فى عصور الظّلم والطّغيان ، ولا مثيل خلال العصور لفرعون فى ظلمه وطغيانه وبطشه .

ويصحّ أن نظنّ أنّ المفاجأة شملت موسى عليه السّلام ذاته وهارون عليه السّلام كذلك . والسّبب فى هذا الظّنّ يرجع إلى أنّ موسى عليه السّلام حينما ألقى عصاه بأمر ربّه جلّ وعلا لم يكن عنده عليه السّلام سابق علم بما سوف تقوم به العصا حينما تتحوّل بإرادة الله حيّةً تسعى وثعبانًا مبينًا .

والحقيقة أنّا نتبيّن رحمة الله تعالى الواسعة تشمل موسى عليه السّلام فى كلّ المواقف الّتى مرّ بها مع عصاه حينما تحوّلت حيّةً وثعبانا . وتفسير ذلك أنّ القرآن الكريم يستعمل بشأن المرّة الأولى لفظة الحيّة وذلك فى قوله تعالى فى سورة طه[1] :

---

(١) الآية ١٩ و٢٠ .

﴿ قال ألقها يا موسى . فألقاها فإذا هي حيّةٌ تَسْعَى ﴾ ، وقد استعملت لفظة الجانّ، بمعنى الحيّة الخفيفة كلٌّ من الآية العاشرة من سورة النّمل والحادية والثلاثين من سورة القصص قال تعالى: ﴿ فلمّا رآها تهتزّ كأنّها جانٌّ ولّى مدبرًا و لم يعقّب﴾ وحينما تكون الحيّة خفيفةً فكأنّها من حيث الحجم أقرب إلى الصّغر منها إلى الكبر، خاصّةً وأنّ لفظة حيّة حينما يذكرها العربيّ الآن على إطلاقها تعنى الحيّة الصّغيرة الحجم بطبعها ، وهذه الحيّة تهتزّ فى مكانها مرّةً وتسعى مرّةً أخرى . فإذا تحوّلنا إلى المناسبة الأخرى تبيّنا أنّ الجانّ أو الحيّة الخفيفة تتحوّل ثعباناً مبيناً عن حقيقته وشرّه على نحو ما بيّنت الآية الكريمة السّابعة بعد المائة من سورة الأعراف والآية الكريمة الثّانية والثّلاثون من سورة الشّعراء . قال تعالى : ﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين﴾ .

وهكذا يكون ثمّة تدرّجٌ فى المرّتين فى الحركة وفى الحجم . وكلّ ذلك من مظاهر رحمة الله تعالى بعبده المصطفى موسى عليه السّلام الّذى أرسله الله تعالى إلى طاغية عصره وكلّ عصر . ونستطيع أن نفهم أنّ العصا فى المرّة الثّالثة قد تحوّلت أمام السّحرة بإرادة الله تعالى ثعباناً مبيناً ، بضخامة شكله ، وقبح منظره ، وقوّة مخبره ، وشدّة فتكه وبطشه وجبروته . لقد تمثّل كلّ ذلك فى ازدراده كلّ ما امتلأ به الوادى من ثعابين وحيّات وأفاعٍ بلغت من الكثرة حتّى ركب بعضها بعضًا ، وكلّ ما استمرّ السّحرة فى تزويد الوادى به من حبالٍ وعصيّ تحوّلت بإذن الله تعالى حيّاتٍ وثعابين . إنّ كلّ ما أفِكوا ويأفكون غدا بإذن الله تعالى أثرًا بعد عين بفعل عصا موسى عليه السّلام الّتى تحوّلت بإذن الله تعالى ثعبانًا لا كالثّعابين .

والحقيقة أنّ ابتلاع ثعبانٍ واحدٍ ملء جنبات الوادى حيّاتٍ وثعابين فى لمح البصر أمرٌ ليس باليسير ، ليس لدى السّحرة وحدهم الّذين أدركوا فوراً أنّهم يتعاملون مع رسولٍ لله ربّ العالمين إنّما على المستوى العامّ كذلك . وتفسير ذلك أنّ الثّعابين من مخلوقات الله تعالى الّتى يلتهم الكبير منها الصّغير ، والقويّ الضّعيف . وهذه

الحقيقة مكّنتنا آلات التّصوير من مشاهدتها الآن عن قرب . والمعروف أنّ عمليّة ابتلاع ثعبانٍ لثعبانٍ آخر عمليّة ليست باليسيرة وتحتاج لإتمامها وقتًا طويلاً ، ويستغني إثرها الثّعبانُ لفترةٍ طويلةٍ عن أيّ وجبةٍ أخرى ، بل ربّما ثقلت عليه الحركة وسهل على خصومه الفتك به والتّخلّص منه .

في ضوء هذه الحقائق وفي ضوء ابتلاع عصا موسى عليه السّلام الّتي تحوّلت ثعباناً مبينًا كلَّ ما امتلأ الوادي به من حيّاتٍ وثعابين في لمح البصر ، لم يملك السّحرة المتخصّصون في السّحر وفي الخداع حينما تبيّن لهم الحقّ إلاّ أن أذعنوا له وهجروا الباطل الّذي كانوا فيه وأراد فرعون تسخيره وتسخيرهم من أجل باطله .

وينبغي أن يكون لحرف الفاء في القول : ﴿ فإذا هي تلقف ما يأفكون ﴾ الّذي يدلّ على التّرتيب مع التّعقيب كبير دورٍ في الدّلالة على الفوريّةالّتي تمّ في أثنائها ابتلاع عصا موسى فور إلقائها حبال السّحرة وعصيّهم الّتي يخيّل للرّائي أنّها تسعى. واللّطيف في الأمر أنّ فاء العطف هذه الّتي تفيد التّرتيب مع التّعقيب يبدأ بها كلٌّ من الآيتين الكريمتين التّاليتين . قال تعالى : ﴿ فوقع الحقّ وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾ .

إنّنا بصدد ثلاث حلقات متتابعة وشبه متلاحمة . ابتلاع عصا موسى عليه السّلام ما يصرف السّحرة عن حقيقته من الحبال والعصيّ . وقوع الحقّ وثبوته . هزيمة السّحرة وفرعون وملئه .

إنّ معنى القول : ﴿ فوقع الحقّ وبطل ما كانوا يعلون ﴾ ببساطة : جاء الحقّ وزهق الباطل . ولكنّ الآية الكريمة تستعمل جملة ﴿ فوقع ﴾ بمعنى ثبت . ولكنّ الوقوع يفيد إلى ثبوت الشّيء سقوطه[1] وكأنّ السّقوط يرتبط به المفاجأة وهي بطبعها سريعة . وكأنّ هذا النّوع من السّقوط يرتبط به الصّوت المفاجئ الّذي ينبغي أن يكون له بالغ الأثر لدى الّذين يسمعونه . وإنّ جملة : ﴿ فوقع ﴾ هنا تذكّرنا بقوله تعالى[2] : ﴿ إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة ﴾ فالقيامة إذا قامت وثبتت ووقعت بملابساتها ليس لوقعتها وقيامها وثبوتها نفسٌ واحدةٌ مكذّبةٌ لها .

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « وقع » ٥٣ . (٢) سورة الواقعة ١ و٢ .

إنّ الحقّ قد وقع وثبت وكان لوقعه ووقوعه أكبر الأثر بسبب ذهاب الباطل واندحاره وبطلان ما كان يعمل السّحرة . وقد ترتّب فورًا على ذهاب الباطل انهزام السّحرة وفرعون وملئه . وإلى هذه المعانى أشارت الآية الكريمة التّالية . قال تعالى : ﴿ فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾ .

إنّ السّحرة قد غُلِبوا فى ذلك اليوم المشهود ، يوم العيد والزّينة ، وهزموا شّر هزيمةٍ على رءوس الأشهاد ، وإنّ السّحرة وفرعون وملأه ومن آزرهم انقلبوا صاغرين ، وارتدّوا على أدبارهم ذليلين حقيرين .

ويلفت النّظر بشأن الآيتين الكريمتين : ﴿ فوقع الحقّ وبطل ما كانوا يعملون . فَغُلِبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾ اشتمالُ كلٍّ من الآيتين الكريمتين على معنيين اثنين، وترتّب آخرهما على أوّلهما . إنّ بُطُولَ ما كان يعمل السّحرة كان بسبب وقوع الحقّ وثبوته . وإنّ انقلاب السّحرة وفرعون وملئه صاغرين ذليلين حقيرين بسبب غَلَب السّحرة وهزيمتهم النّكراء .

وتجاه الحقّ الّذى اتّضح والباطل الّذى افتضح اتّبع السّحرة الحقّ واتّبع فرعون وملؤه الباطل . والآيات الكريمات الثّلاث التّاليات تقرّر اتّباع السّحرة الحقّ . قال تعالى: ﴿ وأُلْقِيَ السّحرة ساجدين. قالوا آمنّا بربّ العالمين. ربّ موسى وهارون ﴾.

وأوّل ما يلفت الانتباه ابتداء الآية الكريمة الأولى بواو العطف الّتى تدلّ على مطلق الجمع : ﴿ وألقي السّحرة ساجدين ﴾ والواو الّتى تفيد العطف هنا تدلّ كذلك على استئناف معنًى جديد ، فإذا كانوا بشأن الآية الكريمة السّابقة يشركون مع فرعون وملئه فى الهزيمة والصّغار فإنّهم الآن ينفردون بالإيمان بربّ العالمين ، ويعبّرون بالسّجود لربّ العالمين على مطلق إيمانهم ، إذ المعروف حسًّا ومعنًى أنّ السّجود بوضع الجبهة على الأرض أبلغ وسائل التّعبير عن الخضوع والتّذلّل . وأيّ شرفٍ وراء شرف السّجود لربّ العالمين جلّ وعلا .

وإنّ ممّا يلفت النّظر كذلك بشأن جملة ﴿ وأُلْقِي ﴾ مجيئها فى صيغة المبنى

للمجهول . وإنّ مجيء هذه الجملة فى صيغة المبنى للمجهول أو المفعول وليس فى صيغة المبنى للمعلوم يفيد كما يقول الرّاغب الأصفهانيّ[1] أنّ ذلك تنبيهٌ على أنّ الحقّ الّذى دهم السّحرة وفجأهم جعلهم فى حكم غير المختارين . إنّهم لشدّة وقع الحقّ ونصوع الحجّة وثبوت آية موسى عليه السّلام فى حُكْم من يُلْقَى به ساجدًا لله ربّ العالمين لأنّ هذا هو التّعبير الصّحيح الّذى لا تعبير صحيح سواه .

و لم يقف السّحرة عند التّعبير عن إيمانهم المطلق الصّادق بربّ العالمين حينما خرّوا سجّدًا لله ربّ العالمين إنّما أردفوا القول بالفعل وذلك فى الآيتين الكريمتين التّاليتين. قال تعالى : ﴿ قالوا آمنّا بربّ العالمين . ربّ موسى وهارون ﴾ .

وإنّ أوّل مظهرٍ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم يلفت نظرنا فى هاتين الآيتين الكريمتين وفى الآية الكريمة السّابقة هو البلاغة بالفَصْل وذلك إثر البلاغة بالوصل بالفاء والواو فى الآيات الكريمات الثّلاث السّابقات . لقد فهمنا من مجيء حرف الفاء الّذى يفيد التّرتيب مع التّعقيب فى الآيات الكريمات الثّلاث السّابقات تتابع الأحداث وتواليها على الفور . فلمّا تحوّلنا إلى الآية الكريمة السّابقة الّتى تبدأ بالواو : ﴿ وألقى السّحرة ساجدين ﴾ تبيّنّا أنّها تنبّه إلى عملٍ جديدٍ سوف ينفرد به السّحرة وهو التّعبير العمليّ بالسّجود دليل الإيمان بالله ربّ العالمين . ولمّا كان الإيمان اعتقادًا بالقلب ولا يعلم ما فى القلب إلاّ الله تعالى ، ونطقٌ باللّسان وعملٌ بالأركان أي الجوارح ، وكان النّطق باللّسان والعمل بالأركان هما الدّليلين على الإيمان بالقلب أو الجنان فذلك معناه أنّ الآيات الكريمات الثّلاث فى حديثها عن سجود السّحرة وإعلانهم الإيمان لله ربّ العالمين تعبّر عن وجهين لدينارٍ واحد . وإنّ الفصل فى الآيتين الكريمتين الثّانية والثّالثة وليس الوصل بواو العطف أو فائه أو غيرهما هو الدّليل على أنّنا بصدد حقيقةٍ واحدة أو جوهرٍ واحد هو الإيمان بالله ربّ العالمين . لقد عبّر عن الوجه الأوّل من الدّينار فى الآية الكريمة الّتى تتحدّث عن العمل

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « لقي » ٤٥٤ .

بالأركان : ﴿ وألقي السّحرة ساجدين ﴾ وعبّر عن الوجه الآخر من الدّينار فى الآيتين الكريمتين اللّتين تتحدّثان عن النّطق باللّسان : ﴿ قالوا آمنّا بربّ العالمين . ربّ موسى وهارون ﴾ .

ومع أنّ فرعون الطّاغية يعلم أنّ سجود السّحرة ليس له ولكن لربّ العالمين ربّ موسى وهارون ، فإنّ السّحرة الّذين كانوا كفرة وبإرادة الله تعالى صاروا بررة كأنّهم أرادوا أن يسدّوا على فرعون الطّاغية أيّ فرصةٍ لتأويل سجودهم لله تعالى . ولم يكتفوا بالقول الّذى جاء فى الآية الكريمة الأولى : ﴿ قالوا آمنّا بربّ العالمين ﴾ تأكيدًا منهم لإيصاد الباب أمام أيّ تأويلٍ للطّاغية لقولهم فقد يظنّ المخبول أنّ السّحرة يريدونه بالقول الّذى جاء فى الآية الكريمة : ﴿ آمنّا بربّ العالمين ﴾ فقد عرفنا أنّ فرعون الطّاغية انتهى به سفهه وطغيانه إلى أنّه ربّ قومه الأعلى : ﴿ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا ﴾ لكلّ ذلك بادر السّحرة إلى القول الّذى جرى على لسانهم فى الآية الكريمة التّالية والذى يُفْهَمُ منه أنّ السّحرة يريدون بسجودهم وإعلانهم الإيمان بربّ العالمين يريدون الله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحدًا ، يريدون ربّ العالمين ، ربّ موسى وهارون . وبذلك يقطع مؤمنو السّحرة على فرعون الطّاغية فرصة تأويل فعلهم وقولهم لمصلحته الشخصيّة ، ويتحوّلون بفضلٍ من الله تعالى ونعمة إلى الصّراط المستقيم ، ويسيرون فيه ، ويواصلون السّير . أمّا فرعون الطّاغية وملؤه السّفهاء فإنّهم واصلوا السّير فى ضلالهم القديم ، واعتسفوا كلّ طريق ، وركبوا كلّ خطلٍ من الرّأي وخطأٍ فى السّبيل . ويكون من فرعون وملئه تعاونٌ على الإثم والعدوان فى حقّ مؤمنى السّحرة ومؤمنى قومه . ويبدأ السّياق بالحديث عن فرعون الطّاغية . وهاتان هما .

الآيتان رقم (١٢٣ ، ١٢٤)

قال تعالى : ﴿ قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إنّ هذا لمكرٌ مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون . لأقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلافٍ ثمّ لأصلّبنّكم أجمعين ﴾ .

إنّ فرعون الطّاغية الّذى ألقى السحرة باسمه حبالهم وعصيّهم أمام موسى عليه السّلام على نحو ما تبيّن من قوله تعالى فى سورة الشّعراء[1] : ﴿ قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون . فألْقَوْا حبالهم وعصيّهم وقالوا بعزّة فرعون إنّا لنحن الغالبون﴾ هو الّذى ينكر عليهم الآن إيمانهم بالله تعالى ربّ العالمين ، وبرسالة موسى عليه السّلام . ويلاحظ أنّ فرعون الطّاغية الدّاهية ينكر على السّحرة إيمانهم بموسى عليه السّلام ويتجاهل إعلان السّحرة إيمانهم بربّ العالمين ربّ موسى وهارون عليهما السّلام كي ينطلي ، فى وهمه السّقيم ، على السّحرة ما انطلى على ملئه الخفيفى الحلوم من مقارنةٍ كانت لصالح فرعون ، بين فرعون الطّاغية وموسى عليه السّلام ، وذلك على غرار مقارنة فرعون الطّاغية بينه وبين موسى عليه السّلام ، بعد أن نكث فرعون وملؤه بالعهد الّذى أخذوه على أنفسهم بأن يؤمنوا بعد أن يكشف ربّ موسى عليه السّلام عنهم العذاب . جاء فى سورة الزّخرف[2] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ ونادى فرعون فى قومه قال يا قَوْمِ أَلَيْسَ لى مُلْكُ مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تُبْصِرون . أم أنا خَيْرٌ من هذا الّذى هو مَهينٌ ولا يكاد يبين . فلولا أُلْقِي عليه أَسْوِرَةٌ من ذهبٍ أو جاء معه الملائكة مقترنين . فاستخفّ قومه فأطاعوه . إنّهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ .

إنّ فرعون الطّاغية بلغ به الجبروت إلى الحدّ الّذى ينكر معه على السّحرة أن يؤمنوا بالله ربّ العالمين ربّ موسى وهارون عليهما السّلام قبل أن يأذن الطّاغية

---

(١) الآية ٤٣ ، ٤٤ .

(٢) الآيات ٥١ ـ ٥٤ .

لهم ! ومادام الطّاغية قد صرف إيمان السّحرة عن كونه إيمانًا بالله تعالى إلى كونه إيماناً بموسى عليه السّلام وإلى توجيه المقارنة إلى كونها بين فرعون وبين موسى عليه السّلام وليس بين فرعون الطّاغية الّذى جاء على لسانه قول الحقّ جلّ وعلا[1] : ﴿ فقال أنا ربّكم الأعلى ﴾ وبين ربّ العالمين جلّ وعلا ، فإنّ الطّاغية يواصل حديثه الّذى صرفه عن ربّ العباد جلّ وعلا إلى العباد . إنّ الطّاغية يزعم ويعلن أنّ إيمان السّحرة ليس وليد آية موسى عليه السّلام الّتى أدرك السّحرة المهرة فى فنّهم أنّ صاحبها رسول ربّ العالمين ومؤيّدٌ منه جلّ وعلا ولكنّه وليد مكرٍ مكره موسى عليه السّلام والسّحرة ووليد مؤامرة اتّفق عليها فى الخفاء موسى عليه السّلام والسّحرة من جنسه . ولا يستحي الطّاغية من الادّعاء بأنّ موسى عليه السّلام والسّحرة تآمروا من أجل أن يخرجوا منها أهلها ، وكأنّ الطّاغية يجهل أنّ موسى عليه السّلام قد طلب من الطّاغية أن يرسل معه إلى أرض الشّام بنى إسرائيل الّذين سامهم الطّاغية سوء العذاب . وكيف يتسنّى ، فَرْضًا ، لموسى عليه السّلام والسّحرة أن يخرجوا منها أهلها من القبط ؟ بالاستحواذ على السّلطة والاستيلاء على الحكم . والحقيقة أنّ هذه هي عقدة فرعون. الحرص على الملك . وإنّ كلّ ما يقول ويفعل الطّاغية دفاعٌ مستميتٌ عن ملكه . إنّ فرعون الطّاغية موقنٌ فى أعماقه بأنّ موسى عليه السّلام صادق ، ومع ذلك هو يعلن غير ما يُخْفِى وينكر على السّحرة أن يؤمنوا وأن يسلموا لله ربّ العالمين .

وبعد التّهديد بالقول وإهاجة أهل مصر على موسى عليه السّلام وملئه والسّحرة يأتى التهديد بالفعل . جاء على لسان فرعون قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ فسوف تعلمون . لأقطّعنّ أيديكم وأرجلكم من خلافٍ ثمّ لأصلّبنّكم أجمعين ﴾ .

إنّ مصيبة فرعون جاءته من الهزيمتين المادّيّة والمعنويّة أمام موسى عليه السّلام . لقد انهزم السّحرة أمام موسى عليه السّلام وفى هزيمتهم هزيمةٌ لفرعون ، وأعلنوا

---

(١) سورة النّازعات ٢٤ .

إيمانهم بربّ العالمين ربّ موسى وهارون وفرعون وكلّ مخلوق ، وفي إعلانهم الإيمان طعنةٌ نجلاء نافذةٌ في أعماق الطّاغية المتكبّر الّذي زعم أنّه ربّ قومه الأعلى : ﴿ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبًا ﴾ فما الّذي يريد الطّاغية من مجيء : ﴿ سوف ﴾ على لسانه وهو حرف تسويفٍ أو حرف استقبال ولماذا جاء على لسان الطّاغية هذا الحرف وليس السّين مثلاً وهو حرف استقبال أيضًا ولكنّه أقصر زمنا ؟ هل يريد الطّاغية إعطاء السّحرة الّذين يهدّدهم بالويل والثّبور فرصةً زمنيّةً ضروريّةً تتيح لهم تحويل قولهم وتغيير موقفهم لصالح الطّاغية ؟ ربّما ، فالله سبحانه وتعالى أعلم بالمراد . علماً بأنّه قد جرى على لسان الطّاغية في سورة الشّعراء[1] مثلاً قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ قال آمنتم له قبل أن آذن لكم . إنّه لكبيركم الّذي علّمكم السّحر فلسوف تعلمون ﴾ في حين قد جرى على لسان الطّاغية في سورة طه[2] مثلاً قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنّه لكبيركم الّذي علّمكم السّحر فلأقطّعنّ أيديكم وأرجلكم من خلافٍ ولأصلّبنّكم في جذوع النّخل ولتعلمنّ أيّنا أشدّ عذابًا وأبقى ﴾ .

فهل معنى ذلك أنّ فرعون الطّاغية ظلّ يهذي ويهذي فتعدّدت عباراته وتنوّعت أساليبه ؟ ربّما . فالله سبحانه وتعالى أعلم . وكان محور التّهديد الفعليّ لفرعون الطّاغية يدور حول قطع أيدي المؤمنين من السّحرة وأرجلهم من خلاف ، بأن يقطع اليد اليمنى مثلاً والرّجل اليُسْرى ثمّ بأن يُصلّبهم جميعًا وبدون استثناء . والصَّلْب تعليق الإنسان للقتل . والصّليب أصله الخشب الّذي يُصْلَبُ عليه[3] .

إنّ الطّاغية يهدّد في صيغة التّوكيد وفي صيغة تكثير الفعل بالتّضعيف بقطع الأيدي والأرجل والصَّلْب . وإذا كانت العادة قد جرت بعد قطع العضو أن يُحْسَمَ اثره وذلك بكيّ موضع القطع أو غمسه في الزّيت السّاخن لمنع الدّم من التّدفّق :

---

(١) الآية ٤٩ . (٢) الآية ٧١ .

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « صلب » ٢٨٤ .

« يقال : قَطَعَهُ فَحَسَمه أي أزال مادّته . وبه سمّي السّيف حُسامًا . وحَسْمُ الدّاء إزالةُ أثَرِه بالكيّ »[1] فإنّ فرعون الطّاغية لم يكن يحسم العضو إنّما كان يتركه ينزف . ويطلّ جرحا اليد والرّجل المقطوعتين من خلافٍ ينزفان ، ويحمل زبانية فرعون الطّاغية مؤمني السّحرة بكلّ برودٍ إلى جذوع النّخل كي يُصَلّبوا حتّى يموتوا في تلك الحالة البشعة ، وكلّ ذنبهم أنّهم آمنوا بالله تعالى ربّ العالمين ورسوله المصطفى الأمين موسى عليه السّلام . جاء في سورة طه[2] قوله تعالى : ﴿ قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنّه لكبيركم الّذي علّمكم السّحر فلأقطّعنّ أيديكم وأرجلكم من خلافٍ ولأصلّبنّكم في جذوع النّخل ولتعلمنّ أيّنا أشدّ عذابًا وأبقى﴾ وإذا افترضنا أنّ النّخل كان في منطقةٍ حارّةٍ من أرض مصر بسبب حاجة ثمر النّخل للسّموم اللّافح كي يَنْضَج وكان وقت تحدّي موسى عليه السّلام السّحرة في أثناء الصّيف استطعنا أن نتبيّن شيئًا من سوء العذاب الّذي سامه فرعون وزبانيته مؤمني السّحرة . وإنّ سوء العذاب بفعل الحرارة نستفيده ممّا عاناه المؤمنون في مكّة المكرّمة قبل الهجرة من عذاب كفّار مكّة الشّديد لهم . وإنّ جواب مؤمني السّحرة على فرعون تمثّله .

الآيتان رقم (١٢٥ ، ١٢٦)

قال تعالى : ﴿ قالوا إنّا إلى ربّنا منقلبون . وما تنقم منّا إلاّ أن آمنّا بآيات ربّنا لمّا جاءتنا . ربّنا أفرغ علينا صبرًا وتوفّنا مسلمين ﴾ .

إنّ الآيتين الكريمتين تذكّراننا بمثل قوله تعالى في سورة الشّعراء[3] : ﴿ قالوا لا ضير إنّا إلى ربّنا منقلبون . إنّا نطمع أن يغفر لنا ربّنا خطايانا أن كنّا أوّل المؤمنين ﴾ وبمثل قوله تعالى في سورة طه[4] : ﴿ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البيّنات

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : « حسم » ١١٨ .
(٢) الآية ٧١ .
(٣) الآية ٥٠ ، ٥١ .
(٤) الآية ٧٢ و٧٣ .

والّذى فطرنا فاقض ما أنت قاض . إنّما تقضى هذه الحياة الدّنيا . إنّا آمنّا بربّنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السّحر والله خيرٌ وأبقى ﴾ .

وحينما نقارن بين الآية الكريمة من سورة الأعراف : ﴿ قالوا إنّا إلى ربّنا منقلبون﴾ وبين الآية الكريمة المشابهة من سورة الشّعراء : ﴿ قالوا لا ضير إنّا إلى ربّنا منقلبون ﴾ نتبيّن ما اتّضح لنا من ذى قبل من اتّجاه آيات سورة الأعراف إلى الاختصار أو الاختزال . ويلحق بذلك الإدغام الملحوظ فى هذه السّورة فى مثل القول[١] : ﴿ قليلاً ما تذكّرون ﴾ والقول[٢] : ﴿ ذلك من آيات الله لعلّهم يذّكّرون ﴾ والقول[٣] : ﴿ كذلك نخرج الموتى لعلّكم تذكّرون ﴾ والقول[٤] : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسّنينَ ونقصٍ من الثّمرات لعلّهم يذّكّرون ﴾ واللّطيف فى الأمر أنّ كلّ هذه الصّور من الإدغام فى الفاصلة متعلّقة بالذّكرى والموعظة . والضّير فى آية سورة الشّعراء بمعنى المضرّة[٥] والمعنى لا ضير علينا ولا مضرة أن تفعل بنا يا فرعون ما تهوى نفسك الأمّارة بالسّوء وشياطينك من الإنس والجنّ لأنّا فى كلّ الأحوال سوف ننقلب إلى ربّنا جلّ وعلا ونرجع إليه تعالى ونصير[٦] .

ومن أهمّ ما يلفت النّظر فى الآية الكريمة مجيء لفظ الرّب فى القول على لسان مؤمني السّحرة : ﴿ إنّا إلى ربّنا منقلبون ﴾ هذا إلى مجيء اللّفظ ذاته مرّتين اثنتين فى الآية الكريمة التّالية . والمعروف أنّ لفظ الرّبّ إنّما يستعمل فى القرآن الكريم فى مواطن الخصوص ، والشّكر لله تعالى على نعمه وآلائه الّتى ربّى بها عباده ، وإعلان العباد فقرهم إلى بارئهم جلّ وعلا ربّ العالمين . إنّ كلّ هذه المعانى وكثيراً غيرها نتبيّنها فى القول هنا : ﴿ إنّا إلى ربّنا منقلبون ﴾ .

وإنّ من ألطف ما يمكن التّنبيه عليه فى مجال الأدلّة على ما يلاحظ على السّورة الكريمة من ميلٍ إلى الاختصار أو الاختزال مراعاةً للمعنى أنّه بالمقارنة بين القول هنا

---

(١) سورة الأعراف ٣ .
(٢) سورة الأعراف ٢٦ .
(٣) سورة الأعراف ٥٧ .
(٤) سورة الأعراف ١٣٠ .
(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « ضير » ٣٠٠ .
(٦) انظر تفسير الطّبريّ ٩ / ١٦ .

على لسان مؤمني السّحرة : ﴿ قالوا إنّا إلى ربّنا منقلبون ﴾ وبين القول فى سورة الزّخرف فى معرض دعاء السَّفَر كما جاء فى قول الحقّ جلّ وعلا[1] : ﴿ وإنّا إلى ربّنا لمنقلبون ﴾ يتبيّن مجيء اللاّم المزحلقة للتّوكيد[2] فى آية سورة الزّخرف وعدم مجيئها فى آية سورة الأعراف . إنّ الآية الكريمة من سورة الزّخرف امتدادٌ لدعاء السّفر : ﴿ سبحان الّذى سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين . وإنّا إلى ربّنا لمنقلبون﴾[3] وكأنّ هناك مِنْ أعداء الله تعالى من يعترض على شكر المؤمنين لربّهم جلّ وعلا نعمه العظيمة ومنها تسخير الله تعالى الرّكوب وجعله ذلولاً للإنسان فكان من المؤمنين استمرارٌ فى الدّعاء ، وتأكيدٌ للمعنى السّابق ، وإضافة المزيد من المعاني المتعلّقة هذه المرّة بالمعاد . ومعروفٌ إنكار أعداء الله تعالى الأشدّ للمعاد فاحتاج مزيدُ الإنكار المزيدَ من التّوكيد فكان القول : ﴿ وإنّا إلى ربّنا لمنقلبون ﴾ .

فإذا تحوّلنا إلى القول على لسان مؤمنى السّحرة فى سورة الأعراف والشّعراء : ﴿ إنّا إلى ربّنا منقلبون ﴾ تبيّنا أنّ مؤمني السّحرة بعد إعلانهم الإيمان بالله ربّ العالمين توقّعوا أعتى البطش من طاغية العصر وكلّ عصر فرعون موسى عليه السّلام وكأنّ القول الخالي من لام التّوكيد على لسانهم : ﴿ إنّا إلى ربّنا منقلبون ﴾ يعكس نفسيّات مؤمنى السّحرة المطمئنّة والّتى ربط الله تعالى على قلوب أصحابها من ناحية ، وضربٌ من القول اللّين لفرعون لعلّه يتذكّر ويتّعظ أو يخشى الله تعالى من ناحيةٍ أخرى .

وإنّ هذا القول على لسان مؤمني السّحرة يذكّرنا ببيتٍ لخُبَيْب بن عَدِيّ من مقطوعة حين بلغه أنّ كفّار مكّة قد اجتمعوا لصلبه ، وهو أحد السّتّة النّفر القرّاء الّذين بعث بهم النّبيّ ﷺ إلى عَضَل والقارَة فغدروا بهم على ماءٍ لهذيل بناحية الحجاز يقال له الرَّجيع[4] يقول رحمه الله تعالى رحمةً واسعة .

---

(١) سورة الزّخرف ١٤ .
(٢) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ١١ / ٣٢٢ .
(٣) سورة الزّخرف ١٣ و١٤ .
(٤) انظر السّيرة النّبويّة لابن هشام (حلبى) ٣ / ١٧٨ - ١٨٥ .

ولست أُبالي حـــين أُقْتَـــلُ مسلمـــًا على أيّ جنبٍ كان فى الله مصرعي[1]

وإذا كان القول على لسان مؤمني السّحرة : ﴿ إنّا إلى ربّنا منقلبون ﴾ متعلّقًا بالآخرة ، فإنّ الآية الكريمة التّالية بشقّيها متعلّقةٌ بالحياة الأولى . ويلاحظ مجيء لفظ الرّبّ مرّةً فى كلّ من الشّقّين . قال تعالى : ﴿ وما تنقم منّا إلاّ أن آمنّا بآيات ربّنا لمّا جاءتنا . ربّنا أفرغ علينا صَبْرًا وتوفّنا مسلمين ﴾ ويلاحظ دور القول : ﴿ ربّنا ﴾ فى الشّقّ الأوّل فى تعميق امتنان مؤمني السّحرة لنعم الله تعالى العظيمة الّتى تجلّت فى آياته جلّ وعلا الّتى اصطفى بها عبده المصطفى موسى عليه السّلام . كما يلاحظ دور صيغة النّداء : ﴿ ربّنا ﴾ فى الشّقّ الآخر فى تعميق ذلّ مؤمني السّحرة لربّ العالمين وتأكيد تضرّعهم له جلّ وعلا .

إنّ الشّقّ الأوّل على لسان مؤمني السّحرة : ﴿ وما تنقم منّا إلاّ أن آمنّا بآيات ربّنا لمّا جاءتنا ﴾ يُشْتَمّ منه مقت السّحرة لفرعون الطّاغية الّذى ينقم منهم وينكر عليهم إيمانهم بآيات الله تعالى الّتى جاءتهم ووصلت إليهم فعلاً على يد موسى عليه السّلام . إنّ فرعون الطّاغية الّذى استمرّ فى كفره وتمادى فى غيّه هو القمين بأن يُنْقَمَ منه وينكر عليه كفره ولكنّ الطّغاة تمتطي الأهواء وتعطّل العقول .

وإنّ الشّقّ الآخر على لسان مؤمني السّحرة : ﴿ ربّنا أفرغ علينا صبرًا وتوفّنا مسلمين ﴾ يفرّ فيه مؤمنو السّحرة إلى ربّ العالمين الّذى يمهل ولا يهمل ، ويعلنون ضعفهم وعجزهم وقلّة حيلتهم . إنّهم يسألون ربّهم جلّ وعلا أن يفرغ عليهم الصّبر إفراغًا ويصبّه صبًّا مقاومًا لما ينوي فرعون الطّاغية عمله معهم من سوء العذاب ، وهو الّذى له سابقةٌ من هذا النّوع مع بنى إسرائيل الّذين سامهم سوء العذاب . أمّا إذا كتب الله تعالى عليهم الوفاة بفعل فرعون أو بفعل سواه أو كانت الوفاة حتف أنوفهم فإنّهم يسألون الله تعالى أن يتوفّاهم مسلمين لله تعالى ربّ

---

(١) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٣ / ١٨٦ وقد احترنا بشأن الشّطر الأوّل رواية طبعة الشّيخ محمّد محي الدّين عن الحميد ٣ / ١٧٠ هامش رقم ٥ .

العالمين معتنقين دين الإسلام الّذى بعث لله تعالى به كلّ المرسلين والنّبيّين ، وفيهم موسى ، عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه . .

وبشأن الشّقّ الأوّل يلفت نظرنا مجيء جملة : ﴿ جاءتنا ﴾ الّتى تدلّ على المجيء الفعليّ والقرب والوصول .

وبشأن الشّقّ الآخر يلفت نظرنا دعاء مؤمني السّحرة ربّهم جلّ وعلا أن يفرغ عليهم الصّبر إفراغًا . وإنّ جملة أفرغ ترتبط بالدّلو الممتلئة بالماء . يقال : أفرغت الدّلو إذا صببت ما فيها ومنها استعير : أفرغ علينا صبراً[1] أي اصبب[2] وفى حديث الغسل : كان يُفْرِغ على رأسه ثلاث إفراغات ، وهي المرّة الواحدة من الإفراغ[3] وإنّ تنكير : ﴿ صبرًا ﴾ يفيد كثرة الصّبر المطلوب من ربّ العالمين البرّ الرّحيم . يقول الزّمخشريّ[4] : « أفرغ علينا صبراً ، هب لنا صبرًا واسعًا وأكثره علينا حتّى يفيض علينا ويغمرنا كما يفرغ الماء إفراغا » وإنّ إفراغ الصّبر إفراغًا على غرار إفراغ الماء يذكّرنا بإفاضة الماء الّتى طلبها أصحاب النّار من أصحاب الجنّة على نحو ما بيّنت الآية الكريمة الخمسون من السّورة الكريمة . قال تعالى : ﴿ ونادى أصحابُ النّار أصحاب الجنّة أنْ أفيضوا علينا من الماء أو ممّا رزقكم الله قالوا إنّ الله حرّمهما على الكافرين ﴾ عن ابن عبّاس قال : كانوا فى أوّل النّهار سحرة وفى آخر النّهار شهداء[5] .

وبعد أن وضّح فرعون الطّاغية موقفه من مؤمنى السّحرة وانكشفت نيّته بادر الملأ من قومه الّذين استخفّهم الطّاغية إلى مواصلة ركوب موجة الطّغيان تملّقًا للطّاغية ومسارعةً منهم إلى تقديم دليلٍ جديدٍ تأكيدًا لطاعتهم العمياء له . وإنّ ركوب خفاف الأحلام الموجة تبيّنه .

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « فرغ » ٣٧٧ .
(٢) لسان العرب : « فرغ » . (٣) لسان العرب : « فرغ » .
(٤) الكشّاف ١ / ٥٦٧ . (٥) تفسير الطّبريّ ٩ / ١٧ وتفسير ابن كثير ٢ / ٢٣٨ .

الآيـــة رقـــم (١٢٧)

قال تعالى : ﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فـى الأرض ويذرك وآلهتك . قال سنقتّل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنّا فوقهم قاهرون ﴾ .

إنّ الملأ من قوم فرعون الّذين يفترض فيهم أنّهم يملأون العين رُواءً والنّفس بهجـةً بقول الخير وفعله يثبتـون أنّهـم أهـلٌ لأن يستخفّهم فرعـون الطّاغيـة لأنّهـم خفيفـو العقول أساسًا . إنّهـم بهـذه المبـادرة الشّـرّيرة يؤكّـدون أنّهـم هـم الأشـرار وليسـوا الأشراف والوجهاء . إنّهم يصحّ فى حقّهم قول الحـقّ جـلّ وعـلا فـى المنـافقين فـى السّورة الّتى تحمل اسمهم : ﴿ المنافقون ﴾[1] : ﴿ وإذا رأيتهم تعجبـك أجسـامهم . وإن يقولوا تسمع لقولهم . كأنّهم خُشُبٌ مسنّدة ﴾ .

إنّ الأشرار وبطانة السَّوْءِ من قوم فرعـون الطّاغيـة يهيجونـه ، وهـو الّـذى يكـاد يشتعل غيظًا ، على موسى عليه السّلام وقومه من بنـى إسـرائيل ، وذلـك فـى هيئـة الاستفهام الإنكاريّ : ﴿ أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك ﴾ أتترك موسى وقومه ولا تضربهم بيدك الفولاذيّة ، وتذرهم أحياء طلقاء ليفسدوا فى الأرض بالدّعوة إلى توحيد الله تعالى وإفراده جـلّ وعـلا بالعبـادة ويـتركك وآلهتـك ويذرك فلا يعبدك أنت وآلهتك من الأصنام الصّغيرة الّتى أذنت بعبادتها معك وأنـت الرّبّ الأعلى ! ﴿ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا ﴾ أين غابت عقول أولئك الأشرار وضمائرهم حينما يعتبرون الدّعوة إلى توحيد الله تعالى وإفراده جلّ وعلا بالعبادة إفسادًا ، وحينما يعتبرون الذّنـب الّـذى لا يغفـره الله تعـالى وهـو الشرك ، بل الدّعوة إلى الشّرك ومحاربة التّوحيد وأهله إصلاحـا ؟ إنّ مقيـاس هـؤلاء الأشرار المضطرب جعلهم يرون الحقّ باطلاً والباطل حقًّا ، المعـروف منكـرًا والمنكـر

---

(٣) الآيـة ٤ .

معروفًا . أيّ خيرٍ يُرْجَى من هؤلاء الأشرار وأمثالهم . ولا يجد المتأمل شفاءً لغليله في الوصف الّذى يستحقّه أولئك الأشرار سوى قول الحقّ جلّ وعلا فيهم[1] : ﴿ فاستخفّ قومَهُ فأطاعوه . إنّهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ .

ولم يكن أولئك الأشرار من ملأ فرعون يجهلون أنّ الطّاغية سبق أن سام بنى إسرائيل سوء العذاب قبل أن يرسل الله تعالى إلى فرعون موسى عليه السّلام حينما أُخْبِر الطّاغية بدنوّ الوقت الّذى يولد فيه ولدٌ فى بنى إسرائيل يكون ذهاب ملك الطّاغية على يديه . لقد قتّل الطّاغية آنذاك ذكور الأطفال وأبقى إناث الأطفال أحياءً . إنّ إهاجة أشرار الملأ فرعون الطّاغية بسؤالهم الإنكاريّ فجّر فى نفس الشّرير ينابيع الشّرور الأصيلة فيه ونكأ بذلك جروح بنى إسرائيل القديمة .

لقد جاء على لسان فرعون ذى النّفس الشّرّيرة قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ قال سنقتّل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنّا فوقهم قاهرون ﴾ وإنّ هذا القول على لسان فرعون الطّاغية يذكّرنا بإنعام الله تعالى على بنى إسرائيل وقد نجّاهم من فرعون وآله على نحو ما بيّنت الآية الكريمة التّاسعة والأربعون من سورة البقرة . قال تعالى : ﴿ وإذ نجّيناكم مِنْ آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم . وفى ذلكم بلاءٌ من ربّكم عظيم ﴾ .

إن فرعون الطاغيّة يهدّد موسى عليه السّلام وقومه بنى إسرائيل بأنّه سيقتّل ، هكذا فى صيغة التّضعيف الّتى تدلّ على تكثير الفعل ، ذكور أطفال بنى إسرائيل كي يقتل معهم المولود الّذى خشي فرعون منه على ملكه . وبأنّه سيستحيى وسيستبقى إناث أطفال بنى إسرائيل أحياء لأنّهنّ لا خوف منهنّ . ويلاحظ أنّ فرعون الطّاغية لا يجيء على لسانه لفظ البنات الّذى يقابل الأولاد إنّما يجيء على لسانه لفظ النّساء : ﴿ ونستحيى نساءهم ﴾ إنّ ذلك دليلٌ على أنّ فرعون الطّاغية ينظر إلى مرحلة طفولة الإناث على أنّها مرحلةٌ ضروريّة لا يلبث البنات بعدها أن

---

(١) سورة الزّخرف ٥٤ .

يتحوّلن نساءً يحقّقن لفرعون وملئه كلّ ما فى نفوسهم المريضة وعقولهم السّقيمة من أهداف رخيصة وغايات خسيسة .

وإنّ مجىء سين الاستقبال الّتى تدلّ على الفوريّة فى القول : ﴿ سنقتّل أبناءهم ﴾ يذكّرنا بمجىء سوف الّتى تدلّ على المستقبل الطّويل أو البعيد فى القول على لسان فرعون فى خطابه لمؤمنى السّحرة فى الآية الكريمة السّابقة الثّالثة والعشرين بعد المائة قال تعالى : ﴿ قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إنّ هذا لمكرٌ مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ﴾ ثمّ هدّدهم الطّاغية بالقطع والصّلب . إنّ تهديد فرعون لموسى عليه السّلام وبنى إسرائيل يجىء فيه حرف السّين سابقًا القتل مباشرةً : ﴿ سنقتّل أبناءهم ﴾ وإنّ تهديد فرعون لمؤمنى السّحرة يجىء فيه حرف الاستقبال سوف سابقًا العلم وليس القطع أو الصّلب . فما معنى الاختلاف بين التّعبيرين وما مدى كشفه عن خبيئة نفس فرعون الطّاغية ؟

معنى الاختلاف أنّ حنق فرعون على مؤمنى السّحرة وإن كان شديداً فإنّه لا يرقى إلى مستوى حنقه على موسى عليه السّلام وملئه . إنّ السّحرة جندٌ خذلوا قائدهم وخيّبوا أمله ورجاءه فيهم بالهزيمة أوّلا وبالإيمان بدين الخصم آخرًا . حقًّا إنّ هذا وذاك قوّةٌ للخصم . ولكن مؤمنى السّحرة ليسوا أعداء فرعون المباشرين . إنّ أعداءه الحقيقيّين هم موسى عليه السّلام وملؤه لأنّ موسى عليه السّلام بالذّات مصدر خطرٍ مباشرٍ على فرعون فى ملكه . إنّ القول : ﴿ فسوف تعلمون ﴾ كشف عن خبيئة نفس فرعون الّتى كانت تتمنّى أن يغيّر السّحرة من موقفهم وهذا يحتاج فسحةً من الوقت أومأ إليها القول : ﴿ فسوف تعلمون ﴾ فإن أصرّ مؤمنو السّحرة على موقفهم كان القطع والصّلب مصيرهم . وإنّ القول : ﴿ سنقتّل أبناءهم ونستحيى نساءهم ﴾ يعبّر عن ثورة فرعون العارمة ، وجرحه القديم الّذى نُكئ ، ويذكّر بعذابه الأليم الّذى سبق فلا يحتاج الأمر إلى غير استئناف العذاب القديم الّذى توقّف إلى حين .

ولا يقف الطّاغية عند التّهديد باستئناف العذاب القديم على الفور إنّما يتبجّح بقوّته القاهرة وينسى قوّة مالك الملك وبطشه وجبروته جلّ وعلا . جاء على لسان فرعون القول : ﴿ وإنّا فوقهم قاهرون ﴾ .

ويصحّ أن يفهم من القول : ﴿ وإنّا فوقهم ﴾ رفعة المكانة والمنزلة . ويصحّ أن يفهم من القول : ﴿ قاهرون ﴾ رفعة المكان والقوّة المادّيّة . إنّ فرعون وفق ظنّه ووهمه فوق موسى عليه السّلام وقومه من الوجهة المعنويّة . ألم يأت على لسان الطّاغية في مجال تفضيل الطّاغية ذاته على موسى عليه السّلام القول في سورة الزّخرف[1] : ﴿ أم أنا خيرٌ من هذا الّذي هو مَهِينٌ ولا يكاد يُبين ﴾ وإنّ فرعون وفق ظنّه ووهمه فوق موسى عليه السّلام وقومه من الوجهة المادّيّة . ألم يأت على لسان الطّاغية في سورة الزّخرف[2] أيضًا القول : ﴿ فلولا أُلْقِي عليه أَسْوِرَةٌ من ذهبٍ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ .

ولم يَخْفَ على موسى عليه السّلام ما قال فرعون الطّاغية وهدّد به وتوعّد فأرشد موسى عليه السّلام قومه ووعد المتّقين بنصر الله تعالى وذلك في .

الآيـــة رقـــم (١٢٨)

قال تعالى : ﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبةُ للمتّقين ﴾ .

تجاه البلاء الّذي اصطفى الله تعالى به بني إسرائيل يأمر موسى عليه السّلام قومه بني إسرائيل أن يستعينوا بالله تعالى أوّلاً على ما سوف يبتليهم الله تعالى به من تقتيل فرعون الطّاغية أولادهم الذّكور الحديثي الولادة وإبقاء البنات أحياء . إنّ ذلك بلاءٌ من الله تعالى عظيمٌ بنصّ القرآن الكريم فعلى بني إسرائيل أن يستعينوا

---

(١) الآيـة ٥٢ .

(٢) الآيـة ٥٣ .

بالله تعالى أوّلاً وعليهم بعد ذلك أن يصبروا على ذلك البلاء . ويلفت نظرنا بشأن البلاء المنتظر بإذن الله تعالى تقديم الاستعانة بشأن البلاء الّذى وقع فعلاً بإذن الله تعالى على نحو ما يتبيّن من الآية الكريمة الثّامنة عشرة من سورة يوسف على لسان والده يعقوب عليهما السّلام . قال تعالى : ﴿ وجاءوا على قميصه بدمٍ كذب . قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمرًا فصبرٌ جميلٌ والله المستعان على ما تصفون ﴾ وليس بخافٍ أنّ يعقوب عليه السّلام يصبر بأمر الله تعالى صبراً جميلاً على البلاء الّذى تمّ بإذن الله تعالى .

ولّما كان مُلْك فرعون وطغيانُه لا يتجاوزان أرض مصر ، ولّما كانت أرض مصر ليست شيئاً يُذْكر بالقياس إلى مساحة الكرة الأرضية الّتى يملكها الله تعالى ويملك كلّ شيء ، ولّما كان ملك فرعون إنّما تمّ بإرادة الله تعالى وإنّ الله تعالى الّذى آتى فرعون الملك قادرٌ على أن ينزعه منه ومن كلّ ذى مُلْكٍ وبطشٍ وجبروت فإنّ موسى عليه السّلام يقرّر أمثال هذه الحقائق بقصد تسلية قومه وتشجيعهم على الصّبر وحثّهم على الاستعانة بالله تعالى مالك الملك العزيز الجبّار المتكبّر . جاء على لسان موسى عليه السّلام القول : ﴿ إنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين ﴾ .

إنّ أرض مصر وغير أرض مصر لله تعالى مالك الملك . وهو جلّ وعلا يورثها ويعطيها من يشاء من عباده سواءٌ كانوا صالحين أو طالحين فكلٌّ موضع ابتلاءٍ واختبارٍ من الله تعالى . أمّا العاقبة المحمودة والخاتمة الحسنة فإنّها للمتّقين ، الّذين ارتقوا فى مراقبة الله تعالى إلى درجة التّقوى وهي الوجه الآخر للإحسان بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك[1] وبهذا يتبيّن أنّ موسى عليه السّلام يحثّ قومه من طرفٍ خفيٍّ على تقوى الله تعالى ومراقبته جلّ وعلا فى السّرّ والعَلَن بعد أن حثّهم على الاستعانة بالله تعالى وعلى الصّبر .

---

(١) صحيح البخاريّ ١ / ٢٠ .

ويبدو أنّ فرعون نفّذ تهديده بسوم بنى إسرائيل سوء العذاب كما يُفْهَم من شكوى بنى إسرائيل لموسى عليه السّلام وردّه عليهم فى .

الآيـــة رقـــم (١٢٩)

قال تعالى : ﴿ قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا . قال عسى ربّكم أن يُهْلِك عدوّكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ .

إنّ بنى إسرائيل يقولون لموسى عليه السّلام رسول الله تعالى إليهم لقد أوذينا من قبل أن تأتينا يا رسول الله ومن بعد ما جئتنا . وقد جاءت جملة ﴿ أوذينا ﴾ فى صيغة المبنى للمفعول أو المجهول لأنّ فرعون الطّاغية هو الّذى آذاهم وهذا معروف . ونستطيع أن نفهم أنّ العذاب بعد ما جاء موسى عليه السّلام قومه هو من جنس العذاب قبل أن يأتي عليه السّلام قومه من إشارة بنى إسرائيل إلى الأذى الّذى حلّ بهم من فرعون وملئه فى المرّتين الاثنتين . ولمّا كنّا على علمٍ بنوع الأذى الّذى ألحقه فرعون بقوم موسى عليه السّلام قبل البعثة وبعد البعثة وهو قتل ذكور الأطفال واستحياء البنات فذلك معناه أنّ العذاب فى المرّتين واحد وهو الّذى صرّح به فرعون فى القول على لسانه فى الآية الكريمة قبل السّابقة : ﴿ قال سنقتّل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنّا فوقهم قاهرون ﴾ .

وعلى غرار الدّليل الّذى وجدناه فى الآية الكريمة السّادسة بعد المائة وسواها من كون جاء إنّما تُسْتَعْمَل فى القرآن الكريم دليلاً على القرب الزّمانيّ أو المكانيّ أو المعنويّ وكون أتى إنّما تُسْتَعْمَلُ دليلاً على البعد الزّمانيّ أو المكانيّ أو المعنويّ نجد كذلك فى هذه الآية الكريمة الدّليل ذاته . قال تعالى[1] : ﴿ قال إن كنت جئت بآيةٍ فأت بها إن كنت من الصّادقين ﴾ وجاء فى هذه الآية الكريمة القول : ﴿ قالوا

---

(١) سورة الأعراف ١٠٦ .

أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾ إنّ فرعون وملأه آذوا بنى إسرائيل من قبل أن يأتيهم موسى عليه السّلام خوفًا على ملكه من الطّفل المولود فى بنى إسرائيل ومن بعد أن جاءهم موسى عليه السّلام خوفًا من موسى عليه السّلام رسول ربّ العالمين .

وممّا يعمّق معنى جملة : ﴿ أن تأتينا ﴾ فى الآية الكريمة كونها مسبوقةً بالقول : ﴿ من قبل ﴾ قال تعالى : ﴿ قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ﴾ وبذلك ازداد البعد الزّمانيّ بعدا . وممّا يعمّق معنى جملة : ﴿ جئتنا ﴾ كونها مسبوقةً بالقول : ﴿ من بعد ﴾ قال تعالى : ﴿ قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾ وبذلك ازداد القرب الزّمانيّ قربًا . إنّ هذه الظّاهرة مطّردة فى القرآن الكريم وتبدو اشدّ وضوحاً حينما يجمع السّياق فى نسقٍ بين هاتين الجملتين معًا .

وإنّ موسى عليه السّلام رسول الله تعالى الموحى إليه والّذى ينظر بنور الله تعالى يجيء على لسانه ، ردّاً على قومه ، قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ قال عسى ربّكم أن يهْلِكَ عدوّكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ .

من المعروف أنّ عسى تفيد التّرجّي فى المحبوب والإشفاق فى المكروه ، وهي هنا فى المحبوب . وللرّاغب الأصفهانيّ اجتهادٌ لطيفٌ فى معنى عسى فى الآية الكريمة يقول رحمه الله تعالى رحمةً واسعة[1] : ﴿ عَسَى طَمِعَ وَتَرجّى . وكثيرٌ من المفسّرين فسّروا لعلّ وعسى فى القرآن باللّازم وقالوا إنّ الطّمع والرّجاء لا يصحّ من الله . وفي هذا منهم قصور نظر . وذاك أنّ الله تعالى إذا ذكر ذلك يذكره ليكون الإنسان منه راجيًا لا لأن يكون هو تعالى يرجو . فقوله : عسى ربّكم أن يهلك عدوّكم أي كونوا راجين فى ذلك ﴾ إنّ موسى عليه السّلام الّذى أمر قومه من قبل بأن يستعينوا بالله تعالى وبالصّبر وبيّن لهم أنّ العاقبة للمتّقين يريد أن يبيّن لهم مظهرًا من أهمّ مظاهر التّقوى وهو الابتهال إلى الله تعالى بالدّعاء أن يهلك الله تعالى عدوّهم فرعون الطّاغية وزبانيته .

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « عسى » ٣٣٥ .

ويُفْهم من القول على لسان موسى عليه السّلام : ﴿ قال عسى ربّكم أن يهلك عدوّكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ أنّ موسى عليه السّلام كأنّ الله سبحانه وتعالى قد أوحى له بأنّه سوف يستجيب دعاءهم فى فرعون وملئه بالهلاك وبأنّهم سوف يخلفون فرعون وملأه من القبط فى أرض مصر . والمعروف أنّ موسى عليه السّلام قد دعا على فرعون وملئه . جاء فى سورة يونس[1] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ وقال موسى ربّنا إنّك آتيت فرعون وملأه زينةً وأموالاً فى الحياة الدّنيا ربّنا ليضلّوا عن سبيلك . ربّنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتّى يروا العذاب الأليم ﴾ .

والمعروف أنّ ربّ العزّة قد استجاب دعاء موسى وهارون عليهما السّلام ، وكأنّ موسى عليه السّلام دعا وكأنّ هارون عليه السّلام أمّن . إنّ الآية الكريمة السّابقة من سورة يونس تنصّ على أنّ موسى عليه السّلام هو الّذى دعا ربّه . وإنّ الآية الكريمة اللاّحقة تنصّ على أنّ ربّ العزّة قد استجاب دعوة موسى وهارون عليهما السّلام . قال تعالى[2] : ﴿ قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتّبعانّ سبيل الّذين لا يعملون ﴾ والمعروف أنّ غرق فرعون وملئه كان بعد مجىء الآيات التّسع ، والمعروف كذلك أنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها من سورة الأعراف تشير إلى فترةٍ مبكّرةٍ من دعوة موسى عليه السّلام فرعون مصر وذلك بعد التّحدّى بآيتى العصا واليد ، وقبل التّحدّى ببقيّة الآيات التّسع . إنّ موسى عليه السّلام يبشّر قومه ، فى هذه الفترة المبكّرة من تاريخ الدّعوة ، ويلوّح لهم من طرفٍ خفىّ بأنّ ربّ العزّة سوف يهلك عدوّهم وذلك معناه أنّ بنى إسرائيل سوف يرثون أرض فرعون ، وهي أرض مصر ، إضافةً إلى أرض الشّأم : ﴿ قال عسى ربّكم أن يهلك عدوّكم ﴾ وإنّ موسى عليه السّلام ينبّه قومه إلى خطورة المسئوليّة أمام الله تعالى بعد أن يهلك الله تعالى عدوّه جلّ وعلا وعدوّهم ، فرعون وآله : ﴿ قال عسى

---

(١) الآية ٨٨ .

(٢) سورة يونس ٨٩ .

ربّكم أن يهلك عدوّكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ ومعنى يستخلفكم يجعلكم تخلفونهم فى أرضهم بعد هلاكهم لا تخافونهم ولا أحدًا من النّاس غيرهم[١] إنّ بنى إسرائيل بعد استخلافهم فى الأرض عليهم مسئوليّةٌ عُظْمَى تجاه بارئهم جلّ وعلا الّذى نصرهم على عدوّه جلّ وعلا وعدوّهم ومكّن لهم فى الأرض . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ ربّ العزّة حنيما يستخلف بنى إسرائيل وغيرهم من المؤمنين يريد جلّ وعلا أن ينظر وأن يعلم علم ظهور كيف يعملون . أيشكرون لله تعالى نعمه وآلاءه أم يكفرون وقد قال تعالى[٢] : ﴿ وإذ تأذّن ربّكم لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتهم إنّ عذابي لشديد ﴾ .

وإنّ تذكير موسى عليه السّلام بنى إسرائيل بالمسئوليّة العظمى الملقاة على عاتقهم يذكّرنا بالآيتين الكريمتين من سورة يونس اللّتين تنبّهان أمّة الإسلام إلى المسئوليّة العظمى الملقاة على عاتقها حينما يمكّن الله تعالى لها فى الأرض . قال تعالى[٣] : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لّما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبيّنات وما كانوا ليؤمنوا . كذلك نجزي القوم المجرمين . ثمّ جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ .

والمعروف أن بنى إسرائيل لم يشكروا لله تعالى نعمه بل كفروها ، فبعث الله تعالى عليهم ويبعث من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة . والمعروف أنّ من أكثر سور القرآن الكريم حديثاً عن نعم الله تعالى على بنى إسرائيل وموقفهم منها سورة البقرة المدنيّة . إنّ على المسلمين أنّ يأخذوا العظة والعبرة من مثل هذا الدّرس وإلاّ كان عذاب كفران النّعم أليماً وأخذ الله تعالى لهم شديداً .

والآيتان الكريمتان التّاليتان تشيران إلى أخذ الله تعالى آل فرعون بالسّنين ونقصٍ من الثّمرات وابتلائهم بالشّرّ والخير فتة وهاتان هما .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩ / ١٩ .
(٢) سورة إبراهيم ٧ .
(٣) سورة يونس ١٣ ، ١٤ .

الآيتان رقم (١٣٠ ، ١٣١)

قال تعالى : ﴿ ولقد أَخَذْنا آل فرعون بالسّنينَ ونقصٍ من الثّمرات لعلّهم يذّكّرون . فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيّئةٌ يطّيّروا بموسى ومن معه . ألا إنّما طائرهم عند الله ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

وبين يدي تأمّلنا للآيتين الكريمتين نودّ أن نتحدّث عن رحمة الله تعالى الواسعة كما تتجلّى في الآيتين الكريمتين وذلك في هيئة نقاط :

أوّلاً : تحدّث السّياق من ذى قبل عن آيتين من الآيات التّسع الّتى اصطفى الله تعالى بها موسى عليه السّلام وهما العصا واليد . ويتحدّث السّياق الآن عن آيتين أخريين هما السّنون ونقصٌ من الثّمرات . وقد وقع الكثير من الأحداث فى الفترة الزّمنيّة بين الآيتين الأوليين والآيتين الأخريين . وإذا كانت الآيتان الأوليان أريد بهما التّحدّي فى المقام الأوّل فإنّ الآيتين الأخريين أريد بهما التّحدّى من ناحية ، والأخذ بالعذاب من ناحيةٍ أخرى . إنّ إمهال الله تعالى للقوم من مظاهر رحمته جلّ وعلا بهم وإنّهم حينما لم يؤمنوا بآيتي العصا واليد ، أخذهم الله تعالى بالآيتين الأخريين . والمعروف أنّ جملة : « أخذ » فى القرآن الكريم تستعمل فى العذاب وفى قوّة الأخذ وشدّة البطش .

ثانياً : السّنون سنو الشدّة ، ويلاحظ أنّنا بصدد السّنين الّتى قال بعضهم إنّها سبع[1] ويغلب استعمال لفظ السّنة دليلاً على عام الجدب والشّدّة . وقد اقترن بالسّنين النّقص من الثّمرات . وحينما ننظر إلى الآية الكريمة الأولى الّتى تتحدّث عن السّنين ونقصٍ من الثّمرات فى ضوء الآية الكريمة الأخرى نتبيّن أنّ السّنين ونقص الثّمرات إذا كانا ذَوَيْ علاقةٍ بالسّيّئة الّتى أصابهم الله تعالى بها على نحو ما يُفْهَم

---

(١) انظر البحر المحيط ٤ / ٣٦٩ .

من القول : ﴿ وإن تصبهم سيّئةٌ يطّيّروا بموسى ومن معه ﴾ فإنّ السّيّئة لم تكن ضربة لازب إنّما كانت الحسنة تجيئهم كذلك وربّما بأكثر من السّيّئة على نحو ما يُفْهَم من القول : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ﴾ .

ثالثاً : لقد فهم العلماء من مجيء الشّرط بإذا مع الحسنة الّتى جاءت معرّفة ومن مجيء الشّرط بإن مع السّيّئة الّتى جاءت منكّرة كثرة الحسنة إلى السّيّئة . يقول الزّمخشريّ[1] فى هذا المعنى : « فإن قلت : كيف قيل فإذا جاءتهم الحسنة بإذا وتعريف الحسنة ، وإن تصبهم سيّئة بإن وتنكير السّيّئة ؟ قلت : لأنّ جنس الحسنة وقوعه كالواجب لكثرته واتّساعه . وأمّا السّيّئة فلا تقع إلاّ فى النُّدرة ، ولا يقع إلاّ شيءٌ منها . ومنه قول بعضهم : قد عددت أيّام البلاء فهل عددت أيّام الرّخاء ؟ » ويقول أبو حيّان[2] : « وأتى الشّرط بإذا فى مجيء الحسنة وهي لما تيقّن وجوده ، لأنّ إحسان الله هو المعهود الواسع العامّ لخلقه ، بحيث إنّ إحسانه لخلقه عامٌّ حتّى فى حال الابتلاء . وأتى الشّرط بإن فى إصابة السّيّئة وهي للممكن إبرازًا أنّ إصابة السّيّئة ممّا قد يقع وقد لا يقع » ويقول البقاعيّ[3] : « ولمّا لم يتذكّروا ولا لانوا سبّب عن أخذهم قولُه معرِّفًا بغباوتهم معبِّراً فى الخير بأداة التّحقيق ، إشارةً إلى أنّه أغلب من الشّرّ ، حثًّا على الشّكر : ﴿ فإذا ﴾ أي فما تسبّب عن ذلك إلاّ أنّهم كانوا إذا : ﴿ جاءتهم الحسنة ﴾ أي الحالة الكاملة الّتى يحبّونها من الخصب وغيره ، وعرّفها بعد تحقيقها إشارةً إلى إكمالها ..... ودلّ على أنّ الخير أكثر من غيره بقوله بأداة الشّكّ مع التّنكير : ﴿ وإن تصبهم سيّئة ﴾ أي حالة يكرهونها » .

فإذا تحوّلنا إلى الآية الكريمة الأولى تبيّنّا أنّ ربّ العزّة يبيّن فى أسلوب القسم بأنّه جلّ وعلا قد أخذ آل فرعون بالسّنين ونقصٍ من الثّمرات . وقد عرفنا أنّ الأخذ يرتبط به القهر[4] وأنّ جملة أخذ تتعدّى بنفسها . جاء فى سورة هود[5] مثلاً قوله

---

(١) الكشّاف ١ / ٥٦٨ . (٢) البحر المحيط ٤ / ٣٧٠ . (٣) نظم الدّرر ٨ / ٣٨ .
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « أخذ » ١٢ . (٥) الآية ١٠٢ .

تعالى : ﴿ وكذلك أَخْذُ ربّك إذا أخذ القرى وهي ظالمة . إنّ أخـذه أليـمٌ شـديد ﴾ وحينما تتعدّى هنا بحرف الجرّ الباء : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعـون بالسّنين ﴾ فذلـك معناه أنّ جملة : ﴿ أخذنا ﴾ هنا تضمّنت إضافةً إلى معناها معنى عاقبنـا أو ابتلينـا[1] واختبرنا[2] وآل فرعون قومه وأتباعه على ما هم عليه من الضّلالة[3] والآل مقلـوبٌ عـن الأهـل ، ويُصَغّـر علـى أُهَيْـل إلاّ أنّـه خُـصّ بالإضافـة إلى أعـلام النّـاطقين دون النّكرات ودون الأزمنة والأمكنة . يقال آل فلان ولا يقـال آل رجـلٍ ولا آل زمـان كذا أو موضع كذا . ولا يقال آل الخيّاط بل يضاف إلى الأشرف الأفضـل يقـال آل الله وآل السّلطان[4] وحينما يجيء في سورة غافر[5] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ فوقاه الله سيّئاتِ ما مكروا وحاق بآل فرعون سُوءُ العذاب . النّارُ يُعْرَضون عليهـا غُـدُوًّا وعَشيًّا ويوم تقوم السّاعةُ أَدْخِلوا آل فرعون أشدّ العـذاب ﴾ فقـوم فرعـون وأتباعـه يشار إليهم مع سوء العذاب ومع دخولهم أشدّ العذاب يوم القيامة بلفـظ الآل الّـذي يدلّ على الشّرف ورفيع المكانة ، وحينما يجيء هنا قول الحقّ جلّ وعـلا : ﴿ ولقـد أخذنا آل فرعون بالسّنين ونقصٍ من الثّمرات ﴾ نكون في كلٍّ مـن الموضعـين أمـام درسٍ قرآنيٍّ عظيم في الدّعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة وفـي الحديـث العفيف عن الخصوم إتماماً لمكارم الأخلاق الّـتي بُعِـث مـن أجلهـا ربّ العـالمين خـير الأنام واصطفاه بخير الكلام .

وواحدة السّنين سنة . والسَّنة مطلقة : السّنة ، الجدبة ، أوقعوا ذلك عليها إكبـارًا لها وتشنيعًا واستطالة . يقـال : أصـابتهم السّنة ، والجمـع مـن كـلّ ذلـك سَـنَهاتٌ وسنون . وقوله عزّ وجلّ : ﴿ ولقد أخذنـا آل فرعـون بالسّـنين ﴾ أي بـالقُحُوطِ . والسّنة : الجَدْب . يقال : أخذتهم السّنة إذا أجدبـوا وأُقْحِطـوا ، وهـي مـن الأسمـاء

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٥ / ٤٥ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٩ / ١٩ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٩ / ١٩ .
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « آل » ١٣٠ .
(٥) الآية ٤٥ و٤٦ .

الغالبة نحو الدّابّة فى الفرس والمال فى الإبل . وفى حديث الدّعاء على قريش : أعنّى عليهم بسنين كسنى يوسف ، وهي الّتى ذكرها الله فى كتابه : ﴿ ثمّ يأتى من بعد ذلك سبعٌ شداد ﴾ أي سبع سنين فيها قحطٌ وجَدْب[1] وأكثر ما تُسْتَعْمَل السّنة فى الحول الّذى فيه الجدب . يقال أَسْنَتَ القوم أصابتهم السّنة[2] قال سويد بن الصّامت الأوسيّ :

فليست بسنهاء ولا رُجّبيّة ولكن عرايا فى السّنينَ الجوائح

قال أبو عبيد : لم تصبها السّنة المجدبة[3] .

ومن المواضع فى القرآن الكريم الّتى جاءت فيها لفظة سنين مقترنةً بالشّدّة هذه الآية الكريمة من سورة المائدة[4] قال تعالى : ﴿ قال فإنّها محرّمةٌ عليهم . أربعين سنةً يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾ .

وكما ابتلى الله سبحانه وتعالى آل فرعون بالسّنين ابتلاهم بنقص من الثّمرات . ونستطيع أن نفهم الفرق بين السّنين ونقص الثّمرات أنّ السّنين عبارةٌ عن الجدب أو القحط الّذى يعمّ البلاد ، أمّا نقص الثّمرات فإنّه تأكيدٌ للجدب أو القحط بحيث إنّه يكاد يزحف إلى الثّمرات والغذاء الرّئيسيّ للنّاس كالحبوب مثلاً . إنّ الجدب على سبيل المثال أصاب أرض مصر طوال سبع سنى الشّدّة على عهد يوسف عليه السّلام الّذى كان آنذاك عزيز مصر . وقد انتهى الأمر بالجدب إلى القضاء على الثّمرات أي على الحبوب فأكل النّاس بفضل الله تعالى فى مصر وخارجها سنى سبع الشّدّة

---

(١) لسان العرب : « سنه » .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « سنن » ٢٤٥ .

(٣) لسان العرب « سنه » والرّجّبيّة ، بتشديد الجيم والياء (أمالى القالى ١ / ١٢٢) وهي النّخلة الّتى تُبْنَى حولها خطيرة يُمْنَعُ بها من ثمرها . أو هي الّتى يُخاف سقوطها فيُعْمَل لها رُجبة . يقول القالى فى ترجيب النّخلة (١/١٢١) : « وذلك أنّها إذا كَرُمَتْ على أهلها وعَظُمَ حَمْلُها رجّبوها . والتّرجيب : أن تُعْمَدَ برُجْبة ، وهي بناء يُبْنَى كالعمود تحتها تُعْمَدُ به » والعرايا : الّتى تَوهَب وتُطْعَم النّاس . والجوائح : من الجَوْح ، بمعنى الإهلاك والاستئصال . والبيت من خمسة أبيات . شعر أهل المدينة المنوّرة ١/٥٧ رسالة دكتوراه مخطوطة للمؤلّف .

(٤) الآية ٢٦ .

الثّمرات أو الحبوب الّتى تركها يوسف عليه السّلام بوحي من الله تعالى في السّنابل طوال سنى الرّخاء السّبع السّابقة . وهكذا يتبيّن أنّ السّنين غير نقص الثّمرات ، وأنّ نقص الثّمرات تأكيدٌ للجدب على المستوى العامّ أو الشّعبيّ . وبذلك نكون أمام آيتين اثنتين من الآيات التّسع وهما السّنون ونقص الثّمرات .

وإنّ مجيء حرف الجرّ ﴿ مِنْ ﴾ الّذى يفيد التّبعيض فى القول : ﴿ ونقصٍ من الثّمرات ﴾ يذكّرنا بالحرف ذاته فى القول على لسان إبراهيم عليه السّلام فى سورة البقرة[1] قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا بلدًا آمنًا وارزق أهله من الثّمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر . قال ومن كفر فأمتّعه قليلاً ثمّ أضطرّه إلى عذاب النّار وبئس المصير ﴾ إنّ إبراهيم عليه السّلام دعا ربّه أن يرزق أهل البلد الحرام من الثّمرات أي بعض الثّمرات وليس كلّ الثّمرات وإلاّ لما جاء حرف الجرّ ﴿ من ﴾ الّذى يفيد التّبعيض .

وإنّ حرف الجرّ ﴿ من ﴾ فى قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسّنين ونقصٍ من الثّمرات ﴾ واحدٌ من الأدلّة على رحمة الله تعالى الواسعة ، والّتى وسعت آل فرعون ! إنّ النّقص لم يشمل ، برحمة الله تعالى ، كلّ الثّمرات إنّما شمل بعضها . وهكذا اجتمع على آل فرعون طول السّنوات العجاف الّتى قيل إنّها سبع، ونقص بعض الثّمرات أو الحبوب الّتي هي من قبيل الغذاء الرّئيسيّ والضّروريّ للإنسان .

إنّ هذا النّوع من الابتلاء وذلك من أجل أن يتذكّر آل فرعون ويتّعظوا ويعودوا إلى بارئهم جلّ وعلا ويؤمنوا بموسى عليه السّلام ويرسلوا معه بنى إسرائيل .

ونذكّر بالإدغام الّذي سبق أن اشرنا إليه فى القول : ﴿ لعلّهم يذّكّرون ﴾ فإنّ الأصل يتذكّرون . وهذا الإدغام امتدادٌ لما لوحظ فى هذه السّورة الكريمة من وضوحٍ لظاهرة الاختزال أو الاختصار .

---

(١) الآية ١٢٦ .

فإذا تحوّلنا إلى الآية الكريمة التّالية صادفنا في القول : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة ﴾ جملة جاء الّتي تُستَعْمَل في القرآن الكريم دليلاً على القرب . فالحسنة قد جاءت القوم ووصلتهم فعلاً من خصبٍ وصحّة ورزق واسع وما إلى ذلك . إنّ آل فرعون حينما تجيئهم الحسنة يقولون : « لنا هذه » ونحن أهلٌ لها ونستحقّها . ويلاحظ تقديم الخبر وهو الجارّ والمجرور : « لنا » دليلاً على عمق شعورهم باستحقاقهم كلّ خير . ويصادفنا في القول : ﴿ وإن تصبهم سيّئةٌ يطّيّروا بموسى ومن معه ﴾ جملة أصاب الّتي تعني دقّة الإصابة وقوّة الوقع وشدّة الارتطام . فالسّيّئة تصيب آل فرعون ولا تخطئهم . وهي شديدة الإيلام لهم لأنّها سيّئةٌ بطبعها ، ولأنّهم يعتقدون أنّهم لا يستحقّون إلاّ الحسنة ، ولأنّ السّيّئة قليلة الورود بالقياس إلى الحسنة على نحو ما فُهِم من تعريف الحسنة ومجيء إذا الشّرطيّة معها ، ومن تنكير السّيّئة ومجيء إن الشّرطيّة معها . إنّ السّيّئة تأتي بعد الحسنة وسُرْعان ما تعقبها الحسنة برحمة الله تعالى .

والعجيب في آل فرعون أنّ الحسنة حينما تجيئهم يقولون نحن نستحقّها ونحن أهلٌ لها ويتجاهلون وجود موسى عليه السّلام ومن معه بين ظهرانَيْهم ، وحينما تصيبهم السّيّئة يقولون إنّ ذلك بسبب وجود موسى ومن معه بين ظهرانَيْنا ويتشاءمون بهم. لماذا يتطيّر آل فرعون ويتشاءمون بموسى عليه السّلام ومن معه ولا يتفاءلون بهم وهم في كلتا الحالتين بين ظهراني القوم . إنّ الآية الكريمة تصحّح على الفور خطأ القوم في القول : ﴿ ألا إنّما طائرهم عند الله ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾ عن ابن عبّاس : ﴿ ألا إنّما طائرهم عند الله ﴾ يقول : مصائبهم عند الله[1] أي من قِبَلِ الله[2] .

والحقيقة أنّ مجيء جملة ﴿ يطّيّروا ﴾ والقول : ﴿ طائرهم ﴾ في هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف المكّيّة ، ولكلٍّ من الجملة ولفظة طائر علاقةٌ بالتّطيّر بمعنى

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩ / ٢٠ وتفسير ابن كثير ٢ / ٢٣٩ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٩ / ٢١ وتفسير ابن كثير ٢ / ٢٣٩ .

التّشاؤم يذكّرنا كلٌّ منهما بموضعين آخرين في القرآن الكريم في المعنى ذاته . أمّا الموضع الأوّل ففي سورة يس المكّيّة والّتي تأخّر نزولها عن سورة الأعراف[١] قال تعالى[٢] : ﴿ قالوا إنّا تطيّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنّكم وليمسّنّكم منّا عذابٌ أليم. قالوا طائركم معكم أئن ذكّرتم بل أنتم قومٌ مسرفون ﴾ وأمّا الموضع الآخر ففي سورة النّمل المكّيّة والّتي تأخّر نزولها عن سورة يس[٣] قال تعالى[٤] : ﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحًا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون . قال يا قوم لِمَ تستعجلون بالسّيّئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلّكم تُرْحَمون . قالوا اطّيّرنا بك وبمن معك . قال طائركم عند الله بل أنتم قومٌ تُفْتَنون ﴾ .

وبشأن آيتي سورة يس سبق لنا في أثناء دراستنا المتأمّلة للسّورة الكريمة قبل ما يزيد على العشرين عامًا[٥] أن مررنا على ظاهرة التّشاؤم أو النّظير مرًّا سريعًا وأشرنا إلى أنّ نظرة الكافرين للتّطيّر والطّائر من زاويةٍ جاهليّة وإلى أنّ رسل الله تعالى قد بيّنوا السّبب الصّحيح لما حلّ بالكافرين من سوء وهو كفرهم وبذلك كان استعمال المرسلين في الآية الكريمة للفظة « طائر » من باب مراعاة النّظير أو المشاكلة لأنّ ما يريد المرسلون غير ما يريد الكافرون .

وإنّ المرور السّريع على هذه الظّاهرة أعقبه محاولة أوسع لدراسة التّطيّر والطّائر من زاوية تطوّر الدّلالة في أثناء دراسة الآية الكريمة الثّالثة عشرة من سورة الإسراء ضمن الدّراسة للسّورة الكريمة بعنوان تأمّلاتٌ في سورة الإسراء[٦] وذلك في الصّفحات ٨٧ ـ ٩٣ .

وإنّ هاتين المحاولتين قد أعقبتهما محاولةٌ ثالثةٌ في أثناء دراسة الآية الكريمة هذه من

---

(١) انظر الإتقان ١ / ٤٢ و٤٣ .
(٢) سورة يس ١٨ و١٩ .
(٣) انظر الإتقان ١ / ٤٣ .
(٤) سورة النّمل ٤٥ ـ ٤٧ .
(٥) كانت الطبعة الأولى في القاهرة ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م بعنوان : تأمّلات في سورة يس قلب القرآن ، وكتبت المقدّمة في ١٢ / ١ / ١٣٩٤ هـ .
(٦) كانت الطّبعة الأولى في القاهرة ١٩٧٨ م وكتبت المقدّمة في ١٩ / ٦ / ١٣٩٥ هـ

سورة الأعراف فى التّفسير البسيط للقرآن الكريم[١] .

ولّما كانت هذه المسألة تصادفنا للمرّة الأولى فى دراستنا المتأمّلة من زاوية التّرتيب التّوقيفيّ لسور المصحف الشّريف فإنّا نودّ دراسة الآية الكريمة محاولين الإفادة ما أمكن من الدّراسات السّابقة المتفرّقة . وهذه هي الآية الكريمة . قال تعالى : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيّئةٌ يطّيّروا بموسى ومن معه . ألا إنّما طائرهم عند الله ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

من البيّن أنّنا بصدد جملة : ﴿ يطّيّروا بموسى ومن معه ﴾ بمعنى يتشاءموا بهم[٢] وبصدد القول : ﴿ ألا إنّما طائرهم عند الله ﴾ بمعنى مصائبهم عند الله ومِنْ قِبَل الله[٣] وشؤمهم[٤] .

وما دمنا بصدد دراسةٍ لمسألةٍ تتعلّق بعددٍ من الآيات فى عددٍ من السّور فربّما كان مفيدًا ذكر هذه الآيات الكريمات فى حيّزٍ واحد .

جاء فى سورة الأعراف قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيّئةٌ يطّيّروا بموسى ومن معه . ألا إنّما طائرهم عند الله ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

وجاء فى سورة يس[٥] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ قالوا إنّا تطيّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنّكم وليمسّنّكم منّا عذابٌ أليم . قالوا طائركم معكم أئن ذكّرتم . بل أنتم قومٌ مسرفون ﴾ .

وجاء فى سورة النّمل[٦] عن ثمود ورسول الله تعالى إليهم صالح عليه السّلام قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ قالوا اطّيّرنا بك وبمن معك . قال طائركم عند الله بل أنتم قومٌ تُفتّنون ﴾ .

---

(١) التّفسير البسيط للقرآن الكريم ٩ / ٨٧ ـ ٩٢ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٩ / ٢٠ ومفردات الرّاغب الأصفهانيّ « طير » ٣١٠ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٩ / ٢٠ و٢١ وتفسير ابن كثير ٢ / ٢٣٩ .
(٤) الجلالين ومفردات الرّاغب الأصفهانيّ « طير » ٣١٠ .
(٥) الآيــة ١٨ و١٩ . (٦) الآيــة ٤٧ .

وما دمنا بصدد مسألةٍ ذات شقّين « التّطير » و« طائر » فربّما كان مفيدًا دراسة كلٍّ من الشّقّين ، من زاوية تطوّر الدّلالة ، على حدة .

فمع ظاهرة التّطيّر الّتى أشارت إليها آية سورة الأعراف مثلاً فى القول : ﴿ وإن تصبهم سيّئةٌ يطّيروا بموسى ومن معه ﴾ .

من المعروف أنّ اللّغة العربيّة لغةٌ اشتقاقيّة يطّرد فيها الاشتقاق بأكثر ممّا يطّرد فى أيّ لغةٍ أخرى . ومعنى الاشتقاق أنّ ثمّة أصلاً لغويًّا تتفرّع منه سائر الألفاظ المشتقّة الّتى تحمل بصمات الأصل أو أهمّ ملامحه . وأعنى بالبصمات أو الملامح حروف الأصل الّتى يجب أن تشتمل عليها كلّ لفظةٍ مشتقّة وبالتّالى تفيد كلّ لفظةٍ مشتقّةٍ ، بسبب اشتمالها على حروف الأصل ، معنى ذلك الأصل ، إضافةً إلى إفادتها المعنى الّذى صيغت بسببه وأنشئت من أجله . وإنّ أقرب مثلٍ يحضرنا التّطيّر الّذى نحن بصدده .

من البيّن أنّ لفظة التّطيّر مشتقّةٌ من الأصل اللّغويّ ط ي ر[1] وأنّ عمليّة التّطيّر ذات علاقة بالطّائر الّذى يطير بجناحيه . جاء فى سورة الأنعام[2] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ وما مِنْ دابّةٍ فى الأرض ولا طائرٍ يطير بجَناحَيْهِ إلاّ أممٌ أمثالكم ما فرّطنا فى الكتاب من شيءٍ ثمّ إلى ربّهم يُحْشَرون ﴾ وكان لعرب الجاهليّة علاقةٌ وثيقة بالطّير ، وقد انعكست تلك العلاقة على لغتهم وعلى تصرّفاتهم . ومن تلك التّصرّفات ما رفضه الإسلام ومنها ما أقرّهم عليه . فعلى سبيل المثال كانت العرب مذهبها فى الفأل والطّيرة واحدٌ فأثبت النبيّ ﷺ الفأل واستحسنه وأبطل الطّيرة ونهى عنها[3] والطّيرة من اطّيّرت وتطيّرت ، ومثل الطّيَرة الخِيرة[4] والطّيرة عند الجوهريّ اسم وعند ابن الأثير مصدر[5] وأصله فيما يقال التّطيّر بالسّوانح والبوارح

---

(١) انظر مثلاً اللّسان « طير » .
(٢) الآية ٣٨ .
(٣) لسان العرب : « طير » .
(٤) لسان العرب : « طير » .
(٥) لسان العرب : « طير » .

من الظّباء والطّير وغيرهما[١] يقول الرّاغب[٢] : « وتطيّر فلانٌ واطّيّر أصله التّفاؤل بالطّير ثمّ يُستَعْمَل فى كلّ ما يُتَفاءَلُ به ويتشاءم » ويبدو من تعامل العرب مع السّانح والبارح من الطّير والظّباء وما إليهما أنّ التّطيّر كان بمعنى التفاؤل أو التّشاؤم فى ضوء حركة الطّائر أو الظّبي ، وبمرور الوقت غلب التّشاؤم على التّفاؤل . وفى إمكاننا أن ننتهي إلى مثل هذه النّتيجة حينما نقف على معنى السّانح والبارح .

إنّ الطّاء والياء والرّاء « طير » إذا كان أصلاً واحدًا يدلّ على خفّة الشّيء فى الهواء ، أي على الطّيران ، ثمّ يستعار ذلك فى غيره وفى كلّ سرعة ، من ذلك الطّير جمع طائر ، ويقال طار يطير طيرانًا ، ثم يقال لكلّ من خفّ قد طار[٣] فإنّ السّين والنّون والحاء : « سنح » أصلٌ واحدٌ يُحْمَل على ظهور الشّيء من مكانٍ بعينه ، ومن ذلك السّانح ، وقولهم : سنح لى رأيٌ فى كذا أي عَرَض[٤] وإنّ الباء والرّاء والحاء : « برح » أصلان ، الأوّل : الزّوال والبروز والانكشاف ، وبذلك يلتقى هذا الأصل مع أصل : « سنح » والثّاني الشّدّة والعِظَم وما أشبههما[٥] ومن ذلك البارح الّذى هو خلاف السّانح ، لأنّه شيءٌ يبرز ويظهر[٦] والتّباريح : الكُلْفة والمشقّة . وضربه ضَرْبًا مبرِّحًا[٧] والبوارح من الرّياح ، لأنّها تحمل التّراب لشدّة هبوبها[٨] .

وإذا كان ابن فارس رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً يرى أنّ الأصل اللّغويّ : « سنح » يدور حول معنًى واحدٍ هو ظهور الشّيء وانكشافه وأنّ الأصل اللّغويّ :

---

(١) لسان العرب : « طير » . (٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « طير » ٣٠٩ .
(٣) انظر معجم مقاييس اللّغة لابن فارس : « طير » ٣ / ٤٣٥ .
(٤) انظر معجم مقاييس اللّغة : « سنح » ٣ / ١٠٤ .
(٥) انظر معجم مقاييس اللّغة : « برح » ١ / ٢٣٨ .
(٦) معجم مقاييس اللّغة : « برح » ١ / ٢٣٩ .
(٧) معجم مقاييس اللّغة : « برح » ١ / ٢٤٠ .
(٨) معجم مقاييس اللّغة : « برح » ١ / ٢٤١ .

« برح » يدور حول معنيين اثنين أحدهما الظّهور والانكشاف والآخر المشقّة فإنّا باستعراض ما جاء فى المعاجم من استعمالات هذين الأصلين نظنّ ـ والله تعالى أعلم ـ أنّ الأصل اللّغويّ : « سنح » يدلّ هو الآخر على معنيين اثنين أحدهما الظّهور والانكشاف وآخرهما السّهولة واليسر . ومن أقوى الأدلّة على هذا الرّأي السّانح والبارح وهما فى الأصل النّوعان من الطّير اللّذان تدور حولهما عمليّة التّطيّر بمعنى التّفاؤل والتّشاؤم معًا .

وإليك هذا النّصّ من لسان العرب[1] : « وفى الحديث بَرَح ظبيٌ ، هو من البارح ضدّ السّانح . والبارح ما مرّ من الطّير والوحش من يمينك إلى يسارك ، والعرب تتطيّر به لأنّه لا يمكّنك أن ترميه حتّى تنحرف ، والسّانح ما مرّ بين يديك من جهة يسارك إلى يمينك ، والعرب تتيمّن به لأنّه أمكن للرّمي والصّيد . وفى المَثَل: من لي بالسّانح بعد البارح ؟ يُضْرَب للرّجل يُسيء الرّحل فيقال له : إنّه سوف يحسن إليك ، فَيُضْرَب هذا المثل . وأصل ذلك أنّ رجلاً مرّت به ظباءٌ بارحةً فقيل له : سوف تسنح لك ، فقال : مَنْ لي بالسّانح بعد البارح » .

والعجيب فى الأمر أنّ من العرب من يتيمّن بالبارح ويتشاءم بالسّانح ممّا هو دليلٌ على فساد القاعدة والذّوق معًا ![2] ومع ذلك فالقاعدة الغالبة هي ما أومأنا إليه أوّلاً. وتظلّ عمليّة التّطيّر أو الطّيرة مرتبطةً بإهاجة الطّائر أساسًا ، وفى ضوء اتّجاهه فى طيرانه يكون التّطيّر بمعنى التفاؤل أو التّشاؤم ، وقد غلب التّشاؤم على التّفاؤل أخيرًا . وهذا التّطوّر الدّلاليّ يقتضينا الوقوف عند بعض النّصوص ابتداءً ، المتعلّقة بالتّطيّر وبلفظة طائر . جاء فى اللّسان[3] : « وقيل للشّؤم طائر وطَيْر وطِيَرَة لأنّ العرب كان من شأنها عِيافَةُ الطّير وزَجْرُها ، والتّطيّر ببارحها ونعيقِ غُرابها وأَخْذِها ذات اليسار إذا أثاروها ، فسمّوا الشّؤم طَيْرًا وطائرًا وطِيَرَة لتشاؤمهم بها . ثمّ أعلم

---

(١) « بـرح » .
(٢) انظر مثلاً اللّسان : « سنح » .
(٣) « طـير » .

الله جلّ ثناؤه عل لسان رسوله ﷺ أنّ طيرتهم بها باطلة ، وقال : لا عَدْوَى ولا طِيَرة ولا هامة . وكان النّبيّ ﷺ يتفاءل ولا يتطيّر . وأصل الفأل الكلمة الحسنة يسمعها عليلٌ فيتأوّل منها ما يدلّ على بُرْئه كأن سَمِعَ مناديًا نادى رجلاً اسمه سالم، وهو عليل ، فأوهمه سلامته مِنْ عِلّته . وكذلك المُضِلّ يسمع رجلاً يقول يا واجد فيجد ضالّته . والطّيرة مضادّةٌ للفأل ، وكانت العرب مذهبُها فى الفَأل والطّيرةِ واحدٌ فأثبت النّبيّ ﷺ الفأل واستحسنه وأبطل الطّيرة ونَهى عنها » وفى الحديث أنّه كان يحبّ الفأل ويكره الطّيَرة[1] وأصله فيما يقال التّطيّر بالسّوانح والبوارح من الظّباء والطّير وغيرهما . وكان ذلك يصدّهم عن مقاصدهم فنفاه الشّرع وأبطله ونهى عنه وأخبر أنّه ليس له تأثيرٌ فى جَلْب نَفْعٍ ولا دَفْعِ ضَرَر . ومنه الحديث : ثلاثةٌ لا يسلم منها أحد . الطّيرة والحَسَد والظّنّ . قيل : فما نصنع ؟ قال: إذا تطيّرت فامضِ ، وإذا حَسَدْت فلا تَبْغ ، وإذا ظننتَ فلا تُصَحِّح[2] وقوله عزّ وجلّ فى قصّة ثمود وتشاؤمهم بنبيّهم المبعوث إليهم صالحٍ عليه السّلام : ﴿ قالوا اطّيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله ﴾ معناه ما أصابكم من خيرٍ وشرٍّ فمن الله . وقيل : معنى قولهم : اطّيّرنا ، تشاءمنا ، وهو فى الأصل تطيّرنا[3] فأدغمت التّاء فى الطّاء واجتُلِبَت الألف ليصحّ الابتداء بها[4] فأجابهم الله تعالى فقال : ﴿ طائركم معكم ﴾ أي شؤمكم معكم ، وهو كفرهم[5] .

وإنّ المعنى الّذى ذهب إليه ابن منظور بشأن آية سورة النّمل هو المعنى الّذى تفيده آية سورة الأعراف وآيتا سورة يس . جاء فى سورة الأعراف القول : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيّئةٌ يطّيّروا بموسى ومن معه . ألا إنّما طائرهم عند الله ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾ وجاء فى سورة يس القول : ﴿ قالوا إنّا تطيّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنّكم وليمسّنّكم منّا عذابٌ أليم . قالوا طائركم معكم أئن ذُكّرتُمْ بل أنتم قومٌ مسرفون ﴾ .

---

(١) اللّسان : « طير » . (٢) اللّسان : « طير » . (٣) اللّسان : « طير » .
(٤) اللّسان : « طير » . (٥) اللّسان : « طير » .

وإذا كانت لفظة التّطيّر أو الطّيرة قد خضعت لتطوّر الدّلالة على نحو ما مرّ بنا فإنّ لفظة طائر ، الّتى ترتبط بها ارتباطًا وثيقًا ، قد خضعت هي الأخرى لتطوّر الدّلالة ، بل إنّ ظاهرة التّطوّر أشدّ وضوحًا فى حقّ لفظة الطّائر . ويبدو ذلك بالوقوف على المعاني المختلفة لهذه اللّفظة أوّلاً ومحاولة ترتيب تلك المعاني زمنيًّا أو تاريخيًّا من زاوية الظّهور وتطوّر الدّلالة . وإليك هذه الاقتباسات :

الطّائر : كلّ ذى جَناحٍ يسبح فى الهواء . يقال : طار يطير طيرانًا . وجمع الطّائر طير كراكبٍ وركب[١] وقد يقع على الواحد[٢] الجوهريّ : الطّائر جمعه طير مثل صاحب صحب . وجمع الطّير طيور وأطيار مثل فرخٍ وأفراخ . وفى الحديث : الرّؤيا لأوّل عابرٍ وهي على رِجْل طائر[٣] أراد على رِجْل قدرٍ جار وقضاءٍ ماضٍ من خيرٍ أو شرّ . وهي لأوّل عابرٍ يعبّرها . أي أنّها إذا احتملت تأويلين أو أكثر فعبّرها من يعرف عباراتها وقعت على ما أوّلها وانتفى عنها غيره من التّأويل . وفى روايةٍ أخرى : الرّؤيا على رِجْل طائرٍ ما لم تُعَبّر ، أي لا يستقرّ تأويلها حتّى تعبّر ، يريد أنّها سريعة السّقوط إذا عُبّرت كما أنّ الطّير لا يستقرّ فى أكثر أحواله ، فكيف ما يكون على رِجْله ؟[٤] وفلانٌ ساكن الطّائر أي أنّه وقورٌ لا حركة له من وقاره حتّى كأنّه لو وقع عليه طائرٌ لسكن ذلك الطّائر . وذلك أنّ الإنسان لو وقع عليه طائرٌ فحرّك أدنى حركةٍ لفرّ ذلك الطّائر ولم يسكن . ومنه قول بعض أصحاب النّبيّ ﷺ: إنّا كنّا مع النّبيّ ﷺ وكأنّ الطّير فوق رءوسنا أي كأنّ الطّير وقعت فوق رءوسنا فنحن نسكن ولا نتحرّك خشيةً من نِفار ذلك الطّير[٥] .

وفى فلانٍ طَيْرَةٌ وطَيْرورةٌ أي خفّةٌ وطيش[٦] ومنه قولهم : ازجر أحناء طيرك أي جوانب خفّتك وطيشك[٧] .

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « طير » ٣٠٩ .
(٢) القاموس المحيط : « الطّيران » .
(٣) اللّسان : « طير » .
(٤) اللّسان : « طير » .
(٥) اللّسان : « طير » .
(٦) اللّسان : « طير » .
(٧) اللّسان : « طير » .

والطّائر ما تيمّنت به أو تشاءمت ، وأصله فى ذى الجناح . وقالوا للشّىء يُتَطيّر به من الإنسان وغيره : طائرُ الله لا طائرُك ، فرفعوه على إرادة : هذا طائر الله ، وفيه معنى الدّعاء ، وإن شئت نصبت أيضًا . وقال ابن الأنباريّ : معناه فعلُ الله وحكمه لا فِعْلُك وما تتخوّفه . وقال اللّحيانيّ : يقال طيرُ الله لا طيرُك وطيرَ الله لا طيرَك وطائرَ الله لا طائرَك وصباحَ الله لا صباحَك . قال : يقولون هذا كلّه إذا تطيّروا من الإنسان . والنّصب على معنى نحبّ طائر الله . وقيل بنصبهما على معنى: أسأل الله طائر الله لا طائرك[1] وجرى له الطّائر بأمر كذا . وجاء فى الشّرّ، قال الله عزّ وجلّ : ﴿ ألا إنّما طائرهم عند الله ﴾ ، المعنى ألا إنّما الشّؤم الّذى يلحقهم هو الّذى وعدوا به فى الآخرة لا ما ينالهم فى الدّنيا . وقال بعضهم : طائرهم حظّهم[2] .

وقال أبو عبيد : الطّائر عند العرب الحظّ ، وهو الّذى تسمّيه العرب البَخْت . وقال الفرّاء : الطّائر عندهم العمل . وطائر الإنسان عمله الّذى قُلّده ، وقيل رزقه ، والطّائر الحظّ من الخير والشّرّ . وفى حديث أمّ العلاء الأنصاريّة : اقتسمنا المهاجرين فطار لنا عثمان بن مظعون أي حصل نصيبنا منهم عثمان . ومنه حديث رُوَيْفِع : إنْ كان أحدنا فى زمان رسول الله ﷺ ليطير له النّصْل وللآخر القِدْح . معناه أنّ الرّجلين كانا يقتسمان السّهم فيقع لأحدهما نَصْلُه وللآخر قِدْحُه[3] .

وطائر الإنسان ما حَصَلَ له فى عِلْم الله ممّا قُدّر له . ومنه الحديث : باليمون طائره ، أي بالمبارك حظّه . ويجوز أن يكون أصله من الطّير السّانح والبارح[4] .

وقوله عزّ وجلّ : ﴿ وكلَّ إنسانٍ ألزمناه طائره فى عنقه ﴾ ، قيل حظّه ، وقيل عمله . وقال المفسّرون : ما عمل من خيرٍ أو شرّ ألزمناه عنقه إن خيرًا فخيرًا وإن شرًّا فشرًّا. والمعنى فيما يرى أهل النّظر : أنّ لكلّ امرئٍ الخيرَ والشّرّ قد قضاه الله

---

(١) اللّسان : « طير » .
(٢) اللّسان : « طير » .
(٣) اللّسان : « طير » .
(٤) اللّسان : « طير » .

فهو لازمٌ عنقه . وإنّما قيل للحظّ من الخير والشّرّ طائر لقول العرب : جرى له الطّائر بكذا من الشّرّ ، على طريق الفأل والطّيرة على مذهبهم فى تسمية الشّىء بما كان له سببًا ، فخاطبهم الله بما يستعملون وأعلمهم أنّ ذلك الأمر الّذى يسمّونه بالطّائر يلزمه . وقرئ طائرَه وطَيْرَه ، والمعنى فيهما قيل : عمله . خيرُه وشرّه ، وقيل : شقاؤه وسعادته[١] .

والطّائر الدّماغ وذلك من حيث قيل له فرخ[٢] والفرخ ولد الطّائر ، هذا الأصل، وقد استعمل فى كلّ صغيرٍ من الحيوان والنّبات والشّجر وغيرها[٣] وفرخ الرّأس : الدّماغ على التّشبيه كما قيل له العصفور . قال :

ونحن كشفنا عن معاوية الّتى هي الأمّ ، تَغْشَى كلّ فرخ مُنَقْنِقِ[٤]

وحيثما يطلق على الدّماغ الفرخ مرّة والعصفور أخرى يطلق عليه الطّائر كذلك. وقد روعي فى ذلك صغر الحجم على نحو ما مرّ بنا من كلام ابن منظور . قال الشّاعر :

هُمُ أنشبوا صُمّ القنا فى نحورهم وبيضًا تقيض[٥] البَيْضَ من حيث طائرُ

فإنّه عني بالطّائر الدّماغ[٦] .

من النّصوص السّابقة يتبيّن أنّ من معاني لفظة الطّائر ، ممّا له علاقةٌ بموضوعنا ، الطّائر ذا الجناح الّذى يطير بجناحيه ، والسّانح الّذي يُتَيّمن به والبارح الّذى يُتَشاءم به ، والحظّ والبخت والنّصيب من الخير والشّرّ ، والعمل ، والرّزق .

ممّا سبق يتبيّن أنّ لفظة الطّائر من المشترك اللّفظيّ بمعنى أن يكون للّفظ الواحد أكثر من معنى ، وبذلك يكون المشترك اللّفظيّ بعكس التّرادف فى رأي الّذين

---

(١) اللّسان : « طير » . (٢) اللّسان : « طير » . (٣) اللّسان : « فرخ » .

(٤) اللّسان : « فرخ » وقوله : منقنق : إفراطًا من القول . اللّسان : « طير » والنَّقْنقة فى الأصل صوت الضّفدعة النّقّاقة إذا ضوعف . القاموس .

(٥) تقيض : تشقّ . والقَيْض الشَّقّ والانشقاق . القاموس .

(٦) اللّسان : « طير » .

يقولون بوجود التّرادف ، والتّرادف هو التّعبير عن المعنى الواحد بألفاظٍ مختلفة . وممّا سبق يتبيّن كذلك أنّنا بصدد مجموعةٍ من المعانى للفظة طائر إذا عرفنا أنّ أوّلها ظهورًا هو إفادة لفظة طائر أنّ المسمّى ذلك المخلوق الّذى يطير بجناحيه فإنّنا وراء ذلك لا تكاد تسعفنا معاجمنا العربيّة بتطوّر دلالة هذه اللفظة وإفادتها المعاني المختلفة خلال العصور المتعاقبة . وإنّ هذه مناسبةٌ مواتية من أجل تأكيد ما يشعر به المتعاملون مع المعاجم العربيّة من زاوية تطوّر الدّلالة أنّ معاجمنا اللّغويّة فقيرةٌ فى هذا الجانب ولا يزال ينقصها المعجم اللّغويّ أو المعاجم اللّغويّة الّتى ترصد تطوّر الدّلالة لمختلف الألفاظ . إنّ عددًا قليلاً جدًّا من ألفاظ اللّغة العربيّة هو الّذى نال حظّه من جهة تطوّر الدّلالة فى حدود ما تسمح به المعاجم اللّغويّة والتّراث الّذى تمّ تحقيقه . إنّ مثل هذا المعجم يفترض تحقيق التّراث ومعرفة تاريخ نظم الشّعر وتحبير النّثر وما إلى ذلك كي تسهل عمليّة رصد تطوّر الدّلالة خلال العصور . ومع ذلك فإنّ فى الإمكان اتّخاذ الخطوات المبدئيّة فى هذا المشروع الّذى يظلّ العمل مستمرًّا فيه بإذن الله تعالى ما دامت لغة الضّاد خالدةً محفوظةً بحفظ الله تعالى كتابه العزيز الّذى نزل بلسانٍ عربيٍّ مبين .

ونحن من جانبنا نحاول تبيين تطوّر دلالة لفظة الطّائر فى ضوء التّصوّر لحلقات سلسلة الأعمال المترتّبة على تعامل العربيّ فى القديم مع هذا المخلوق الّذى يطير فى الهواء بجناحيه ابتداءً بإهاجته والتّطيّر باتّجاهه من زاوية التّفاؤل أو التّشاؤم .

فلنحاول القيام بعمل ذلك الشّريط التّصويريّ للأحداث حسب تسلسلها .

إنّ العربيّ الّذى كان يستقسم بالأزلام أو يهيج الطّير كي يتّخذ قراره بالمضيّ قُدُمًا فى العمل أو النّكوص على عقبيه كانت إهاجة الطّائر إحدى الوسائل فى سبيل اتّخاذ القرار الحاسم والأخير . لقد كان العربيّ يعمد إلى الطّائر الّذى يصادفه فيهيجه ويستثيره . وإنّ اتّجاه الطّائر المستثار ذات اليمين أو ذات الشّمال له أثره النّفسيّ العميق عند المستثير . ويبدو أنّ اعتماد العربيّ فى سبيل كسب لقمة العيش

على حرفة الصّيد له دوره فى ضوء التّعامل مع الطّائر الّذى يريد أن يصيده . فبما أنّ الطّائر الّذى يُرى مستثيرَه جانبَه الأيمن ويتجه ذات اليمين يمكّن الصّائد من اصطياده بأكثر من الطّائر الّذى يرى مستثيره جانبه الأيسر ويتّجه ذات الشّمال فقد أطلق العربيّ على كلٍّ من الطّائرين اسمًا خاصًّا به . إنّ الطّائر الّذى يمكّن مستثيره من اصطياده بأخذه ذات اليمين أطلق العربيّ عليه اسم السّانح . وسبق أن تبيّنّا أنّ هذا الأصل اللّغويّ : « سنح » المأخوذ منه لفظة السّانح يفيد معنيين اثنين يعكسان نفسيّة الصّائد المبتهج لنجاحه ويسر إصابته الطّائر . وهذان المعنيان هما الظّهور واليُسْر . ومن أقرب الأدلّة على اليُسْر فى كلامنا المعتاد القول الدّارج على ألسنتنا : لقد سنحت لي فرصة . وإنّ الطّائر الّذى لا يمكّن مستثيره من اصطياده بأخذه ذات الشّمال أطلق العربيّ عليه اسم البارح . وسبق أن تبيّنّا أنّ هذا الأصل اللّغويّ : « برح » المأخوذ منه لفظة البارح يفيد هو الآخر معنيين اثنين يعكسان بدورهما نفسيّة الصّائد المستاء لفشله وعسر إصابته الطّائر . وهذان المعنيان هما الظّهور والعسر . ومن أقرب الأدلّة على العسر القول الذى جرى على ألسنة العرب مجرى المثل : مَنْ لي بالسّانح بعد البارح .

إنّ ردّ الفعل النّفسيّ عند العربيّ فى حال نجاح محاولة الصّيد أو فشلها هو ذات ردّ الفعل النّفسيّ عنده حينما يستثير الطّائر ويقوم بعمليّة التّطيّر . فبما أنّ العربيّ فى أثناء عمليّة الصّيد يستبشر حينما يكون الطّائر سانحًا ويستاء حينما يكون بارحًا فإنّه فى أثناء عمليّة التّطيّر والقيام بإهاجة الطّائر يتجاذبه من الوجهة النّفسيّة شعوران من الارتياح النّفسيّ مع السّانح ، والانقباض النّفسيّ مع البارح . فإذا اتّجه الطّائر ذات اليمين وكان سانحًا تفاءل العربيّ ، وإذا اتّجه الطّائر ذات الشّمال وكان بارحًا تشاءم العربيّ . وبهذا يتبيّن أنّ عمليّة التّطيّر فى الأساس تعنى التّفاؤل والتّشاؤم معًا من جهة الاحتمال . فإذا تحقّق اتّجاه الطّائر نحو إحدى النّاحيتين كان ثمّة تفاؤلٌ مع السّانح وكان ثمّة تشاؤمٌ مع البارح .

بناءً على ذلك تكون لفظة الطّائر الّتى تفيد أساسًا الطّائر الّذى يطير بجناحيه قد أفادت مطلق التّطيّر أو الطّيرة بمعنى التّفاؤل والتّشاؤم معًا ، ثمّ أفادت لفظة الطّائر معنى التّفاؤل أو التّشاؤم فى ضوء كون الطّائر سانحًا أو بارحًا على التّوالى .

وبما أنّ ردّ الفعل النّفسيّ عند العربيّ المتطيّر يتمثّل فى القيام بعملٍ مّا إثر التّفاؤل أو التّشاؤم بالإقدام والقيام بعملٍ مّا أو الإحجام والقيام بعملٍ مّا أفادت لفظة الطّائر فى هذه المرحلة معنى العمل .

وبما أنّ الإنسان إنّما يريد الخير لنفسه ، وفى ضوء هذه الإرادة هو يأتى من الأعمال ما يعتقد أنّ فيه صلاحه . وبما أنّ الفعّال فى الأمور كلّها هو الله تعالى الّذى لا رادّ لقضائه ولا معقّب لحكمه جلّ وعلا ، فإنّ كلّ إنسانٍ قد يصيب فى عمله وقد يخطئ ، قد ينجح وقد يفشل ، قد يحالفه الحظّ وقد يخونه ، قد يكون من نصيبه الخير وقد يكون من نصيبه الشّرّ . إنّ كلّ هذه الاحتمالات مرّ بها العربيّ الّذى تفاءل والّذى تشاءم . وإنّ كلّ هذه الاحتمالات أفادتها لفظة الطّائر فى هذه المرحلة . إنّها أفادت فى هذه المرحلة مجموعةً من المعانى المتقاربة كالحظّ والبخت والنّصيب ، والمتقابلة كالخير والشّرّ .

ومن البيّن أنّ العمل الواحد الّذى يقوم به المتطيّر قد يحقّق النّتائج المرجوة وقد تكون النّتائج بعكس المرجوّ والمأمول . ومن هنا أفادت لفظة الطّائر فى هذه المرحلة بعض المعانى الّتى تدلّ على الخير وحده دوه سواه ، أو على الشّرّ وحده دون سواه، وبعض المعانى الّتى تدلّ على الخير والشّرّ معًا ، على أن يحدّد السّياق طبيعة ذلك المعنى وحظّه من الخيريّة أو الشرّ ، وهذه الألفاظ هى الحظّ والنّصيب والبخت .

ونستطيع أن نفهم أنّ لفظة الطّائر ، وكذلك التّطيّر والطّيرة ، بعد أن كانت تفيد التّفاؤل أو التّشاؤم اتّجهت إلى إفادة التّشاؤم غالبًا بدليل نهى الأحاديث النّبويّة الشّريفة عن الطّيرة .

وإذا كنّا حاولنا من جانبنا رصد تطوّر الدّلالة للفظة الطّائر ذات العلاقة بالتّطيّر